فضل النقيب

# دفاتر الأيام



اصدار وزارة الثقافة

فضل النقيب

# دفاتر الأيام

اسم الكتاب : دفاتر الأيام

تأليف : فضل النقيب

إصدار : وزارة الثقافة

الناشر : وزارة الثقافة

رقم الإيداع : ٢٠٠٦/٥٩م دار الكتب - صنعاء

الطبعة : الأولى ٢٠٠٦م

كان ذلك في عام ١٩٧٠ وكنت قد تخرجت من جامعة القاهرة قبل أشهر قليلة تحدوني الآمال العريضة في المستقبل، ولم أكن أعلم أن وراء الأكمة ما وراءها، وأنني في الصيف ضيعت اللبن، وإن سفر العودة إلى عدن سيضعني في مثل موقف أحمد الصافي النجفي عندما عاد إلى بغداد أعمى فهتف:

يا عودة للدار ما أقساها      أسمع بغداد ولا أراها

ذلك أنه يوم إعلان نتيجة التخرج في صيف ١٩٦٩، وأظن ذلك كان في شهر أغسطس أجرت معي زميلتي المصرية « ماجدة موريس» حديثاً قصيراً نشر مع صورتي أسفل الصفحة الأولى من جريدة الجمهورية القاهرية تحت عنوان «الأول على قسم الصحافة من اليمن»، وكنت فخوراً بذلك أحمل الشهادة بيد والجريدة باليد الأخرى، ولم أكن أعلم أنني بذلك كمن يحفر لنفسه حفرة بيديه.

سألتني الزميلة التي أصبحت اليوم صحفية مرموقة في حقل النقد السينمائي بجريدة «الجمهورية» ضمن الأسئلة: بمن تأثرت من المفكرين؟ فأجبتها ببراءة: بعباس محمود العقاد وخاصة عبقرياته الإسلامية.

ما كنت أدري أو أقدر مدى رد الفعل في عدن على جملة مثل تلك، فهناك كانت تلمع في السماء نجوم أخرى، وحين وصلت بالطائرة إلى مطار عدن الدولي أسرّ في أذني صديقي الذي استقبلني: كان لازم تجيب سيرة العقاد.. وماذا في ذلك؟ يا أخي الجماعة حاملين السلم بالعرض، وقد قرأوا الشيوعية من الصفحة

الأخيـرة فـمنهم من يبـاري لينين ومنهم من يناطح مـاوتسي تونج. قلت: وما العمل؟ قال:قل يا هادي.. قلت: يا هادي.

ومضت الأشهر بطيئة متثاقلة وأبواب العمل مغلقة في وجهي حتى كان ذلك اليوم الذي ذهبت فيه إلى وزير التربية عبدالله عبد الرزاق باذيب أشكو إليه وضعي وكان ماركسياً أصولياً قرأ الكتاب من الصفحة الأولى، وكان معتدلاً وفي سن النضج، وقد استقبلني بترحاب وقال: اعتبر نفسك تعينت مدرساً فهذه حدودي ...ولكن.. اسـمح لي قـبل ذلك بمكالمة تليـفـونيـة ..اتصل بجـهـة مـا وسـأل بحـضـوري.. هل هناك اعـتـراض على تعـيين فـلان؟ لا أدري بماذا أجاب الطرف الآخر، ولكـن الأستاذ باذيب انطلق يقهـقه بملء صوته وهو يعلق دون أن ينظر إلي: فليمـدد الحـجاج رجليـه.. ثم نظر إلي قائلاً بفخامة: أخي... داوم غداً صباحاً في كلية عدن.

ذهبت إلى كلية عدن فاستقبلني العميد عبدالوهاب عبدالباري وهو من أخف خلق الله دماً وأشدهم سخرية فأخذني في جولة في الكلية وخلفنا تسير ست من الأغنام سألته عنها فأجابني : يا إبني افهـمها ...تربية الأغنام أفضل من تربية هذا الجيل الطالح.. ثم أخذ يقـهقه وهو يربت على الأغنام ويقـول لي: شـوف الوفاء والمحبة والطيبة في عيونها.. أنصحك.. لا تعلم الطلبة أي شئ.. قلت: وماذا أعـمل؟ أجاب: أنا وأنت وجـميع المدرسين نشتـغل سجـانين لأن هؤلاء لو خرجوا إما أن يذهبوا إلى «السيسبان» - منطقة مشبوهة بجانب الكلية - وإما أن ينقلبوا ثواراً في الشارع فتضيع عليهم الدنيا والآخرة .

## غنم العميد

لم يكن السفر مع عميد كلية عدن عبدالوهاب عبدالباري هيناً ولا مأموناً، فالرجل «مسحوب من لسانه»، وإذا ضرب «الفيوز» في رأسه ممكن يخليها ظلمة على نفسه وعلى من حواليه، وقد أخذت أجتهد في تحضير دروس الفلسفة والمنطق وعلم النفس وتقريبها إلى أذهان الطلاب الذين كانوا يقاربونني سناً وكنت أحثهم على أن يسألوا لنفكر سوية بصوت مسموع، وشعرت في وقت من الأوقات، أنهم أصبحوا جزءاً مني وأنني أصبحت جزءاً منهم، كما تلمست نقلهم إلى المعرفة والفهم بسبب المحيط المتلاطم حولهم. فقد كان المنهج الدراسي في وادٍ وما يجري في الشارع ويقال في أجهزة الإعلام في وادٍ آخر.

وقد استمر العميدُ في محاولاته لاقناعي بأنني أحرث في شاطئ البحر وأنه لا فائدة ترجى من وراء أي تعليم وكثيراً ما كان يحضر إلى الصف لإخراجي أثناء الحصة بمختلف الحجج، وكان الطلاب ما أن يحضر حتى يضجوا بالضحك فيشير إليهم بعصاه قائلاً: آه منكم ياملاعين، المستقبل أمامكم أسود. وكان واضحاً أن الطلاب أنسوا إلى عميدهم بل وأحبوه وكانت تعليقاته اللاذعة تنتقل على ألسنتهم إلى كل مكان في المدينة، وقد عبر الكثيرون منهم عن حبهم وتقربهم منه بإحضار ما تيسر من بقايا الخبز والأعلاف لغنم العميد التي أخذت تسرح وتمرح في الكلية ثم تمادت فأصبحت تدخل إلى الصفوف تبترد وهي تحاول قضم أحذية الطلاب البالية وأطراف

ملابسهم الرثة، وقد أثبتت الأغنام موهبتها الطبيعية في امتصاص القلق وإشاعة البهجة والتعايش مع البشر.

وهكذا أخذت الكلفة ترتفع بين العميد والطلاب، فتراه أثناء الفسحة وقد خرج من مكتبة إلى الساحة يسير مع هذا الطالب أو ذاك وقد حط كلاهما ذراعه على كتف الآخر، بينما طالب أخر يصيح من بعيد: يا أستاذ عبدالوهاب.. ما هو الفرق بين الفئة السياسية الفلانية والفئة العلانية (لا داعي لذكر الأسماء)؟ فيجيبه العميد: ما فيش فرق يا غبي بس «هاذولا» يسرقون في النهار و«ذولاك» يسرقون في الليل.. ويعقب: شوف الفرق العظيم يا خايب.

عبدالوهاب عبدالباري أحد ألمع خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت وعلى قدر كبير من الذكاء واللماحية وربما كان ذلك وراء نظرته السوداوية للناس والأيام، كأنما رائده في ذلك أبو الطيب المتنبي القائل:

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روى رمحه غير راحم

وكان يشعر بمرارة شديدة تجاه كل ما يرى ويسمع، وحين كنت أسأله كان يقول لي: الله يخليك لا تخلي العقارب والثعابين تخرج من فمي.. شوف السم الناقع على طرف لساني.

وإلى الغد...

## معركة بالأسنان والأيدي

كان الأستاذ عبدالوهاب عبدالباري يخوض معارك كثيرة ومتعددة الجبهات، القليل منها حقيقي أما أكثرها فوهمي، ما كان أشبهه بـ«دونكيشوت» وهو يحارب طواحين الهواء معتقداً أنها فرسان الأعداء وجحافلهم الداهمة.

كان لعميدنا جسم طويل مستدق بسمرة محروقة، وصلعة مستوية لم يبق فيها سوى شعيرات معدودة، وعينان زائغتان مليئتان بالشك وعدم اليقين، ولم يكن لينسى أبداً أنه ذلك الخريج اللامع الذي وصل إلى وظيفته بمواهبه واجتهاده، لذلك كان على الدوام متحفزاً لتفنيد ودحر أي كلام وإثبات جهل صاحبه وإذا لزم الأمر تسفيهه وفضحه علناً، لذلك يمكنني أن أؤكد بكل ثقة أنه كان موسوعة في مثالب ومعايب منافسيه وأعدائه.

كنت لتوي قد أنجزت مصالحة تاريخية بين العميد والشاعر الكبير عبد الرحمن فخري الذي كان هو الآخر يرى نفسه نصف الدنيا بقامته العملاقة العريضة ولونه الأبنوسي وعيونه «المفنجنة» وصوته الجهوري الفخيم الذي يمكنه بواسطته السيطرة على جمهور في ملعب كرة قدم. وكان الاثنان العميد والفخري قد ذهبا لتمثيل اليمن في مؤتمر سياسي عقد في بيروت ودار نقاش حول الديموقراطية في اليمن فما كان من العميد سوى المبادرة للرد المفحم قائلاً: إن اليمن هو أعظم بلد ديمقراطي في العالم والدليل على ذلك أننا بعثنا «عبداً يمثلنا» مشيراً إلى (صاحبه) الفخري، فما كان من

الأخير إلا أن انقض عليه كما ينقض الصقر على فريسته، وهكذا تحولت ساحة المؤتمر إلى ميدان معركة بالأسنان والأيدي والكراسي وما تيسر على المائدة من كاسات ومنافض سجاير ودوارق مياه.

وهل يصح هذا يا سيادة العميد؟ يا أخي النكتة حبكت، وأنت تعرفني ما أقدر أقاوم.. ثم.. من يكون الفخري؟ وعلى كل حال.. كل واحد عرف صاحبه.

وما هي إلا أيام قليلة عقب المصالحة التاريخية حتى انقض العميد بدون مسوغ قوي اللهم إلا مماحكات طائرة في الهواء على أستاذ الجيل وصاحب أكبر مكتبة شخصية في عدن الأستاذ عبدالله فاضل فارع، واصفاً إياه بأنه«عبدالله فاضي فارغ» وانه لو قرأ فقط عناوين الكتب التي في بيته لكان قد أصبح أكبر مثقف في الوطن العربي.

وهكذا نشبت معركة أكبر من سابقتها..

فإلى الغد...

## نكد الدنيا

هجوم العميد عبدالوهاب عبدالباري على أستاذ الجيل وصاحب أكبر مكتبة شخصية في مدينة عدن، عبدالله فاضل فارع ووصفه له بأنه «عبدالله فاضي فارغ» وبأنه لو قرأ عناوين الكتب التي احتلت جميع غرف فيلته الفسيحة في منطقة «خور مكسر» على البحر لكان قد أصبح أكبر مثقف في الوطن العربي، أثار لغطاً كبيراً في الأوساط الثقافية وعلامات استفهام كبرى.

ضرب المثقفون أخماساً في أسداس واستخدموا جميع مناهج

التأويل والتحليل لمعرفة دوافع وأهداف هذا الهجوم الصاعق غير المتوقع، ذلك أن عبدالله فاضل ليس بالطير الذي يؤكل لحمه، بقامته القصيرة العريضة المكتنزة كأنه «صخرة الوادي» التي تتحطم فوقها أقوى السيول، كما أنه صاحب مكانة اجتماعية مرموقة حتى أن الرئيس سالم ربيع علي كان يزوره في منزله ويستشيره في الكثير من الأمور.

وقبل ذلك وبعده، فما عرف عن عبدالله فاضل تهيبه لمعركة فهو السباق دائماً لإذكاء نيران المعارك بلسان قطاع وجنان ثابت ورغبة أكيدة في النزال والعراك تصل إلى حد التوله والاستهانة بالخطر، وإذا كان العميد يحاول خدش الصخر بأظافره فإن عبدالله فاضل يحفر الحفرة العميقة لا يرى لها قرار.

إذاً هل هناك جهة وراء العميد، فقد كنا في زمن لا يعرف مقتول من قتله ولماذا قتله.. سألت عبدالوهاب عبدالباري بحكم العلاقة الحميمة التي أصبحت تربطني به فأجاب: هل تصدق بالله أنني أكن لهذا الرجل كل الإعجاب وأعرف مكانته العلمية والثقافية وليس بيني وبينه شيء، ولكنني مررت بحالة من الغضب الحارق والسخط الماحق على نفسي وعلى كل من حولي فرغبت في أن أنشب أظافري في أي رقبة سمينة وأستعرضت أسماء كثيرة فلم أجدها في مقامي.. تستطيع أن تقول أنني عبرت عن الحب بطريقة معكوسة.

حين رويت هذا الحوار في مجلس عبدالله فاضل الذي يؤمه جمع كبير من المثقفين كنت كمن دلق برميل ماء بارد على نار مشتعلة فقد تنفس الجميع الصعداء وإن كان بعضهم قد عاتبني لاحقاً لأنهم كانوا يتشوقون إلى معركة حامية «تكسر هذا الملل وتكنس هذا السام».

أما عبدالله فاضل فابتسم وهو يردد (ومن نكد الدنيا ..) وهكذا أنجزت مصالحة تاريخية ثانية بعد لمصالحة مع الشاعر الفخري.

لقد هدأ العميد يوماً أو يومين ثم قرر في لحظة تجلي أن يشن هجوماً كاسحاً على أكبر رأس في وزارة التربية والتعليم .

فإلى الغد.

## يا قاتل يا مقتول

كان نائب العميد في كلية عدن هو أبو بكر عبد الرزاق باذيب، الأخ الأصغر لوزير التربية والتعليم آنذاك، وهو رجل يشبه تلك الصناديق الخشبية السميكة التي كانت تستورد من الهند للعرسان الجدد والتي مهما قرعت ظاهرها فلن تستطيع أن تعرف ما بداخلها، أما العميد عبدالوهاب عبدالباري الذي كان يتحرق شوقاً لمعركة تكنس الضيق والملل، فقد كان يشبه نائبه بالقنفذ، ويعجب لذلك السياج الشوكي الذي استعصى على كل مناوراته واستفزازاته وتوقه لمعرفة ما يدور في رأس نائبه، وكان يقول لي: المشكلة أن لسانه لا ينطق وعيونه لا تكف عن التهديد: « إلا أطيح فيه يوم من الأيام يا قاتل يا مقتول» .

وبينما كان العميد يفكر في تلك الأحجية العويصة وهو يذرع ساحة المدرسة ذهاباً وإياباً والأغنام ترافقه كأنها حرس مسؤول كبير إذا بزوبعة مفاجئة تهب على الكلية حوالي عشر سيارات « بيك أب» مكتظة بطلاب قادمين من محافظة « أبين» يطلبون تسجيلهم للدراسة والسكن الداخلي في الكلية ..هل قلت يطلبون ؟ إنهم يأمرون وعيونهم تلمع بالتهديد والوعيد ، فقد كان الرئيس سالم

ربيع علي قد أطلق عنان هذه القوة الكاسحة وأصبح من حقهم إلقاء القبض على أي واحد يشتبهون بأنه « ثورة مضادة» وتكوين محاكم ثورية ميدانية وإصدار أحكام وتنفيذها ..الخ .

لمعت عينا العميد بفرح عجيب غريب وهو ينظر إلى نائبه القادم يحجل من مكتبه وهمس في أذني: جاك الموت يا تارك الصلاة. ثم تنحنح واتكا على عصاه فرحب بالطلاب معلناً أن يوم المنى والسعد هو يوم التحاقهم بالكلية ..فقط .. عليهم أن يكلفوا خاطرهم ويذهبوا في مشوار بسيط إلى مكتب الوزير لجلب موافقة خطية.

وفيما كان الطلبة يتأهبون كان العميد يمرق بسيارته كالسهم وأنا معه عبر طرق جانبية وصولاً إلى مكتب الوزير حيث أبلغه أن الكلية لا تستطيع استيعاب طالب إضافي واحد وأن مثل ذلك الأمر لو حدث فسيقدم استقالته. طمأنه الوزير مؤكداً أن ذلك لن يحصل أبداً، ولم يكن الوزير يعلم شيئاً عن زوبعة الطلاب - الثوار التي أطبقت على الوزارة بعد دقائق من خروجنا..

فإلى الغد...

## لا يموت الذئب.. ولا تفنى الغنم

خرجت أنا والعميد عبدالوهاب عبدالباري من مكتب وزير التربية والتعليم في «مدينة الشعب» حيث قرر العميد أن نلتف من الخلف عبر دغل الأشجار التي لم يشذبها أحد منذ سنوات لنتجنب لقاء الطلاب- الثوار- وما قد ينتج عن مثل ذلك اللقاء من حوادث لا يحمد عقباها.

حين رآني أبتسم قال لي: هذه الخطة محكمة.. قلت له: لا أنا في

وادي وأنت في وادي أخر. رويت له أني التقيت الرئيس علي ناصر محمد عام ٦٨ مختبئاً في ظل تلك الشجرة (وأشرت إليها) وحيداً ساهماً متفكراً وكان قدم استقالته كمحافظ للحج فتبرأ من السلطة ولم يصعد إلى الجبل مع رفاقه اليساريين الثائرين على قحطان الشعبي فتبرأ منهم. وتستطيع أن تقول العكس أنه تقرب من رفاقه بالاستقالة واقترب من السلطة بعدم الصعود إلى الجبل.. وقد سألت علي ناصر وهو غارق في حبوته: ما رأيك في أصحاب الجبل؟ فانتفض وهو يقول لي: عملاء.. عملاء.. قلت له: أما أنها الثورة تأكل أبنائها ومضيت (كانت إجابته بالون اختبار لغرضي من السؤال) لأنه ما لبث أن لحق بي ليقول لي بصوت هامس: إذا التقيت أحداً منهم في يافع فبلغهم تحياتي وقل لهم أننا رفاق درب واحد ومصير واحد. قلت للعميد: وأظن أن هذه الشجرة المباركة هي التي أوحت لعلي ناصر بفكرة الوسطية وسياسة: لا يموت الذيب ولا تفنى الغنم، وهي السياسة التي جعلت منه شوكة الميزان في صراع الأضداد على امتداد عقد ونيف من السنين العاصفة.

قلت للعميد: أملي أن تجد شجرتك المباركة فتجنح إلى السلم والاعتدال.. أجابني بصوت كله استنكار: أنا.. الله يسامحك، والله ما يبرد قلبي إلا إذا تكسرت النصال على النصال..

مقابل وزارة التربية عبر الشارع الرئيسي القادم من «عدن الصغري» باتجاه «جولة كالتكس» حيث مفترق طرق «عدن- الشيخ عثمان» توجد غابة أشجار «الطاري» في منطقة «الحسوة» وهي أشجار عجيبة يتم جرحها بسكين فتفرز عصارة لبنية بيضاء حلوة لا تلبث أن تتفاعل مع الجو فتتحول إلى خل صاف خلال فترة يوم أو

يومين. هناك قرر العميد أن ننيخ ركاباً ونقيم معسكرنا لمراقبة الموقف على الطبيعة، وكان من عادة العميد أن يحمل معه حقيبة السيارة كيساً كبيراً من الفحم وجالونا من البنزين وكمية كبيرة من التبغ الخام إضافة إلى «مداعة» (أرجيلة) يمنية، وقد قام بإشعال النار وتعمير «البوري» وأخذ يقرقر بسلام وعيناه تمسحان مداخل ومخارج الوزارة بانتظار العاصفة. سألته عن الخطة.. فأجاب: ليس الآن.. هذا وقت للعمل لا للكلام.

## حكمة الإمام ومقالب العميد

عندما سألت عميد كلية عدن عبدالوهاب عبدالباري عن خطته للإيقاع بين الطلبة الثائرين ووزير التربية والتعليم آنذاك عبدالله عبد الرزاق باذيب فأجابني: هذا وقت للعمل وليس للكلام.. أدركت أنه لا خطة ولا يحزنون، إن هي إلا رمية طائشة من رميات العميد إن «صابت صابت وإن خابت خابت».

وحين ألححت عليه روى لي ما أطلق عليه (الحكمة الذهبية) لإمام اليمن الراحل أحمد بن يحيى حميد الدين حين كانت تصله أنباء القتال بين قبيلتين فيهزه الطرب والانشراح وهو يرد على من يطالبه بالتدخل لفض الاشتباك وإصلاح ذات البين بقوله: «ناب كلب في رأس كلب».

وروى لي العميد أيضاً مقلباً من مقالبه الظريفة كان قد دبجه قبل أيام لنائبه الذي لا يطيقه أبوبكر عبد الرزاق باذيب حيث صدف أن التقيا في أحد «مقايل» القات التي يرتادها السياسيون ويكون الكلام فيها من الوزن الثقيل وكان بجانب العميد أحد المناضلين القادمين

من الريف حديثاً والذي لا يعرف أكثر الموجودين في «المقيل» فلما سأل العميد عن شخصية نائبه رد عليه بأنه «الفنان الكبير محمد عبده زيدي» مستغلاً تشابه السمات الشكلية وكون الاثنين مصابين بشلل الأطفال.

وأخذ صاحبنا المناضل القادم من الريف كلما اشتد وحمى وطيس الجدل يتدخل بقوله: بالله عليكم يا إخوان خلونا نسمع كم أغنية من الزيدي.. وفيما أبوبكر باذيب يتميز من الغيظ ويكاد ينفجر معتقد أن وراء ذلك مؤامرة سياسية للعبث به يكون العميد قد خرج من المقيل إلى الشارع ليضحك على راحته وخوفاً من أن يشرق بالقات إذا كظم فرحته وسط الناس وقد يروح فيها «فطيس».

المهم أن باذيب بعد المرة الخامسة من «خلونا نسمع الزيدي.. الله يعطيكم العافية» أخذ ربطة القات ورماها في وجه المناضل القادم من الريف وغادر المقيل ثائراً وسط قهقهات الموجودين دون أن يعلم أن العميد وراء القصة.

المهم أن العميد دفع الثمن لفشل «الخطة المحكمة» فجرى نقله إلى ثانوية «خور مكسر» بينما رقي نائبه إلى عمادة كلية عدن، ولم أعد أرى العميد «الأصلي» إلا على فترات متباعدة، ولم أبق في كلية عدن سوى فترة قصيرة نقلت إثرها إلى الإذاعة.. وكنت كلما مررت بجانب الكلية أبتسم وأنا أقول: الله يذكرك بالخير يا عبدالوهاب عبدالباري.

## ماجدة موريس والعمة فوزية

من عجائب الصدف أن الزميلة المصرية ماجدة موريس التي كان حديثها الصحفي معي هو السبب في إغلاق أبواب الإعلام بوجهي بسبب الإشارة إلى إعجابي بعبقريات العقاد الإسلامية، كانت هي ذاتها من فتح في وجهي تلك الأبواب، فقد صدف أن أجرت مقابلة مع وزير الإعلام آنذاك «عبدالله الخامري» الذي كان في زيارة لمصر لحساب جريدة (الجمهورية) القاهرية حيث عن لها أن تسأله على هامش الحديث عن زميل الدراسة، الذي هو أنا، وقد أثنت على أدائي الدراسي، الأمر الذي غير وجهة نظر الوزير ١٨٠ درجة بعد أن أعيتنا الحيل والوساطات والشهادات، فعاد إلى عدن متحمساً «كأنه ولي حميم» لينقلني على وجه السرعة من كلية عدن التي قضيت فيها أمتع الأوقات مع العميد عبدالوهاب عبدالباري وأغنامه الودودة إلى الإذاعة كرئيس لقسم الأخبار.

كان مبنى الإذاعة القديم يقع مباشرة على البحر في مدينة التواهي على مرمى حجر من دار الرئاسة الذي كان مقراً «للوالي البريطاني» قبل الاستقلال عام ١٩٦٧، وكانت رائحة البحر ونسماته المنعشة وطيوره البيضاء الصخابة هي التعويض الرومانسي الحالم عن زوابع العميد في الصحراء الكاوية التي تقع فيها كلية عدن في نقطة التماس بين «الشيخ عثمان» و«دار سعد» وهي نقطة حدودية كانت تسمى «نمبر ستة» وتفصل مستعمرة عدن عن سلطنة «العبادل» في « لحج» وعلى مقربة من الكلية تقع «مبارك» الجمال - بكسر الجيم- ومرابض الأغنام فلا تسمع غير الهدير والثغاء وما يصاحبها.. أما هنا فما ثم غير الموسيقى والنجوم والوجوه الصبيحة

ومداعبات البحر وما «يطلبه المستمعون».

أما الأخبار التي جئت من أجلها «فلا أخبار ولا يحزنون» إن هي إلا المنشفة نفسها نغمرها كل يوم في الماء ثم نعيد عصرها في الميكروفون مستمطرين اللعنات على أمريكا والإمبريالية ومسبحين بحمد موسكو والاشتراكية.. وتلك سياسة مقررة.

في الإذاعة أخذت أتعرف على النخبة الثقافية ونجوم الإعلام وأتعلم شيئاً من «الاتيكيت» الاجتماعي في زمن عصف بكل «اتيكيت» وكانت الفضاضة فيه عنوان الوجاهة والوقاحة أكثر أنواع الثقافة رواجاً، ولن أنسى ذلك اليوم الذي دخلت فيه «أستوديو» تسجيل البرامج، وكان الأستاذ الشاعر محمد سعيد جراده يتحضر لإجراء مقابلة بينما المذيعة اللامعة « فوزية غانم» تحضر نفسها لمساءلته وتنشغل في الوقت ذاته باختيار موسيقى ومؤثرات صوتية، وكانت ضابطة الصوت «زينب عبد الرحمن» واقفة بلا عمل، فقلت لها على البداهة: «ساعدي عمتك فوزية يا زينب».

- فإذا بفوزية تنتفض كأنما لدغها ثعبان وهي تمد يدها حتى كادت تقتلع عيني فيما هي تصرخ بكل صوتها: «عمتك في عينك يا بلا نظر».

- هذا المشهد الذي أرعبني أضحك الأستاذ جراده حتى وقع على قفاه وهو يقول لي: «يا أهبل.. تعلم كيف تخاطب النساء».

وقد ظل بعد ذلك - رحمه الله- طوال عشرين عاماً كلما قابلني يبادرني بالسؤال: « كيف عمتك فوزية؟».

- ثم يغرق في ضحك من كل قلبه.

## نجوم الإذاعة

كانت إذاعة عدن عام ١٩٧١ حلبة فريدة من نوعها. تجري مباريات الملاكمات الإدارية والوظيفية فيها بقبضات حديدية مغطاة بقفازات حريرية، وكانت صورة للوضع في البلد كما كان وكما هو كائن وكما سيكون، فلكل مرحلة من هذه المراحل ممثلوها الذين سيرحلون أو الذين سيتشبثون بصواري وأعمدة السفينة المترجرجة فوق الأمواج، إضافة إلى أولئك الذين يكمنون في الأروقة والمنعطفات والزوايا المظلمة في انتظار البلاغ رقم «١» ليسيطروا بعدها على الأجهزة والميكروفونات والملفات.

وفيما كانت حالة الأجهزة تتدهور وتتداعى لضعف الصيانة وانتهاء الصلاحية، كانت الطموحات تستعر وتشتد لدى البعض متزامنة مع عمق الإحباط وقتامة الاستشراف لدى البعض الآخر.

«علوي السقاف» الذي كان والده قاضياً مشهوراً في دبي عزل نفسه، وقد نذر ألا يكلم الدهر إنسياً رغم أنه كادر مخضرم مشهود له بالكفاءة فنياً وتحريرياً وإدارياً، وكنت كلما حدثته عن أحوال ركاب السفينة وأهوال تقلبات البحر المنذر لا يزيد عن القول:

«لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره»

«خالد محيرز» الإداري الممتاز الجاهز على الدوام للعمل، الصبور، الدؤوب على مدار الساعة، هرب من المعمعة إلى مشروع روسي لتقوية الإرسال في منطقة «الحسوة» وعندما تحدثه يشير إليك بحكمة القرود الثلاثة: «لا أرى، لا أسمع، لا أتكلم».

- وطبعاً دون أن يتكلم.

«جمال الخطيب» المجابه المعتز بنفسه، انتهى قتيلاً، وزميله عبدالرحمن بلجون الرقيق، الخفيف الظل، انتهى كذلك قتيلاً.. وهكذا.. وهكذا..

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

ضابطات الصوت اللواتي صرفت عليهن الإذاعة «دم قلبها» قررن أن يكن مذيعات، فكان لهن ما أردن، فتنحت المذيعات المعتمدات لضابطات الصوت، وجاءت كوادر جديدة لضبط الصوت تتدرب على الأجهزة العتيقة.

في هذا الجو التحقت بالإذاعة ولم أكن من أهل الثقة والحكم فأسند ظهري إلى جدار وثيق، كما أنني لم أكن من أهل الخبرة، فأتكئ إلى علم عريق.. حيا الله.. مجرد خريج جديد لا يودي ولا يجيب.

لذلك كان من حق المذيعة النجمة «القرفانة» فوزية غانم أن تقفز في وجهي محذرة ومنذرة كما أشرت بالأمس. وكان من حق الشاعر الكبير محمد سعيد جرادة أن يضحك من «وقعتي» حتى يستلقي على قفاه. وعلى كل حال، فرب ضارة نافعة، فقد أصبحنا أصدقاء، وحين دعتنا فوزية ذات يوم للغداء أنا والجرادة في منزلها، لاحظت سطوتها المخيفة في البيت، حتى لتشعر أن الفناجين والصحون والسكاكين ترتعد من الخوف، وهذه صفة غالبة في نساء عدن، لذلك عندما قال لي صديقي الجزائري «بده مكي» الموظف في وزارة الإعلام في أبو ظبي أن هناك مثلاً جزائرياً يقول: «من لم يؤدبه الزمن أدبته نساء اليمن».

- صححت له بالقول «نساء عدن»،

وقد قفزت إلى ذهني «عمتي فوزية» التي أصبحت تتقبل الكنية بصدر رحب وقلب مفتوح.

## هذا عمر الجاوي

صباح مدينة عدن لا يشبهه أي صباح أخر في الدنيا فالمدينة المكونة من «كريتر» و«المعلا» و«التواهي «كتلة حجرية هائلة من جبال بركانية ضخمة حملت برافعة إلهية ووضعت في قلب الماء (جزيرة أو شبه جزيرة) وأمامها أراضي سبخة تحتوي «ملاحات» بمراوح عملاقة يتلامع الملح فيها تحت ضربات الضوء الأولى، وخلف الملاحات صحراء موحشة تأنس بها لمصاحبتها «سيف البحر» حتى أبين أو تخترق كثبانها حتى لحج حيث يوجد واديان من اخصب وديان اليمن.

أما سكان المدينة فيدبون في «فوهة البركان» في «كريتر» حيث القاع العميق أو «يتشعلقون» بمنحدرات الجبال في «المعلا» و«التواهي».

لذلك فإن للصباح رائحة البحر وأنفاس الملاحات وهبات الجبال الكبريتية وأنسام الصحراء النقية وتلك الزخات العطرية التي ترسلها دلتا «أبين» ودلتا «لحج» هدية لتلك المدينة الدهرية التي عمرها من عمر الزمن.

يضاف إلى ذلك الحالة المعنوية للناس في رخائهم وشقائهم، في أمنهم وخوفهم، ولم تكن تلك الأيام التي نتحدث عنها آمنة من خوف ولا مطعمة من جوع، لذلك فإن أنفاس الصباح لم تكن تخلو من قسوة المعاناة.

ذلك الصباح الاستثنائي كان مختلفاً فقد هبط على متن سفينتنا (الإذاعة والتلفزيون) التي كانت تترنح تحت القصف والقصف المضاد للنفوس المتنمرة والأرواح المتوثبة والمصالح المتقاطعة، نورس بالغ الجمال وربان مقاتل من الطراز الأول هو «عمر الجاوي» الذي عين مديراً عاماً للإذاعة والتلفزيون، ولم يكن من الحزب الحاكم، كما لم يكن موظفاً عاماً يمكن أن يؤمر فيأتمر لذلك فقد هيأ مسرح القتال منذ لحظة هبوطه، ولم نعرف معه طعم الراحة أبداً، ولكننا عرفنا مجد التحدي وتعلمنا فنون الاقتحام.. تقول له: هذا جبل يا عمر.. فيقول لك: عيب، حد نظرك.. أنا ابن عبدالله.. هذه غيمة هشة دق راسك براسه، وحين تعود إليه بدمك يقول لك: هكذا الرجال.. «ذي ما يكسر ظهرك يقويك».

عمر الجاوي الذي درس في طنطا وموسكو وكان زعيماً طلابياً بارزاً وأحد أبرز قادة الدفاع عن صنعاء في حصار السبعين يوماً، كان رجلاً قصير القامة برأس أصلع وعينين مغناطيسيتين جاحظتين وصوت يجلجل حين يتكلم بأداء موسيقي أخاذ مطرز بالشعر والحكم والأمثال الشعبية. كان يسارياً باللسان شعبياً تراثياً بالوجدان، إنسانياً في الأعمال إنه بالضبط الذي عناه الشاعر بقوله:

ترى الرجل النحيف فتزدريه    وفي أثوابه أسد هصور

قام الجاوي دون الرجوع إلى الوزير والوزارة بتشكيل مجلس للإذاعة والتلفزيون وعينني نائباً له ومدير للإذاعة (دون معرفة سابقة، ودون استحقاقات مالية) وكان أول قرار اتخذه حرمان نفسه من راتب المدير العام، والتنازل عن صلاحياته المالية للمسؤول المالي (عيب نوسخ أنفسنا بالفلوس) ثم اقذفوا بكتاب التقارير ولصوص

المهنة في الشارع فإن لم تستطيعوا فاقفلوا عليهم في الغرف الخلفية المظلمة.. وهكذا دخلت مع عمر الجاوي في نفق لم أكن أعرف ما ينتظرني فيه ولكنه كان مليئاً بالإثارة والتحدي والكبرياء فإذا كنت مع «العميد» في قلب زوبعة فإنني مع «الجاوي» على جناح عاصفة لا تهدأ ليل نهار.

## هكذا.. عمر الجاوي

في أول اجتماع للمجلس الجديد للإذاعة والتلفزيون بعدن والذي ذكرت بالأمس أن «عمر الجاوي» شكله دون الرجوع إلى وزير الإعلام آنذاك «عبدالله الخامري» ودون أن يحفل قليلاً أو كثيراً باللوائح، تمكن عضو المجلس «علوي السقاف» و«خالد محيرز» من إقناع عمر بعدم التنازل عن صلاحياته المالية لأن «المال عصب العمل وأهم سلاح في يد المدير العام» وكذلك فيما يتعلق براتبه «فلك الحق أن تتبرع به أو تفعل به ما تشاء ولكن ينبغي أن تقبض الراتب حسب الأصول».

خلال الاجتماع جاءنا من يقول أن الملحق الثقافي في سفارة ألمانيا الديموقراطية ينتظر مقابلة المدير العام، فإذا بالجاوي يقفز مثل «الجني» إلى الباب ليمنعه من الدخول: كيف سمحت لنفسك أن تأتي بلا موعد؟ ثم ما هذه الأشرطة التي تحملها؟ شرح الألماني تحت وقع الصدمة والمفاجأة أنه مرسل من مكتب الوزير، وهذه الأشرطة التلفزيونية هي لتعليم اللغةِ الألمانية بناء على اتفاق موقع على أعلى المستويات..

خرج الجاوي عن طوره وطلب من أحد الموجودين إخراج الأشرطة خارج الغرفة: «دعني ألقن هذا الخبير درساً» يا حضرة

الملحق الألماني: إن شعبنا يرغب في أن يتعلم لغته العربية الفصحى ونحن في سبيل الإعداد لذلك على أشرطة مثل أشرطتك، ثم سنعلمه اللغة الإنجليزية وهي اللغة الثانية في هذا البلد، وأظنك تعرف أن عدن كانت مستعمرة إنجليزية حتى ما قبل ٣ سنوات، وبعد ذلك سنعلمه اللغة الروسية، اللغة الأم للمعسكر الاشتراكي التي أجيدها أنا وأنت، وعندما يتقن شعبنا هذه اللغات الثلاث تماماً، فسنفكر في مشروع تعليم اللغة الألمانية.. عد إلى الوزير وقل له إن «عمر الجاوي» يقول إن اللغة الألمانية لن تمر إلا على جثته.

بهت الألماني الذي لم يتعود مثل هذه اللغة فإنسحب دون أن ينطق بكلمة، وكان هذا الموقف العامل الثاني من عوامل الحرب بين مجلس إدارة الإذاعة والتلفزيون ومديرها العام وبين الوزارة ووزيرها.

لم يكن الجاوي يملك سيارة، وفي الوقت نفسه، يرفض استخدام سيارات الإذاعة والتلفزيون، وكنا في طريقنا إلى الشارع عقب الاجتماع، للبحث عمن يقلنا على طريقة «الأوتوستوب» فصادفنا «ضرار عبدالوهاب» مراقب البرامج الذي أوقفه الجاوي عن العمل منذ أول يوم وهو رجل خطير له أبعاد وأعماق، فخاطب الجاوي بقوله: باين عليك ناوي «تعصدها» فقال له الجاوي بقوله: أيوه.. لكن.. في بطنك.

أول ما وقفنا على الرصيف توقفت لنا سيارة، ولدهشتي كانت سيارة «العميد» عبدالوهاب عبدالباري الذي لم أره منذ عدة أشهر، والذي أنفجر أول ما شاهد الجاوي: أنا يا عمر يشنّعوا عليّ ويسموني «عبدالقات عبدالبوري (رأس النرجيلة)».

أخذ عمر في تهدئته بينما العميد يدوس على «البريك» و«الكلاتش»، في ضربات سريعة متتابعة.. طيب على كيفك ما فيش قطع غيار في البلاد.. قال العميد: بافرجك انتقامي..

أزاح العميد سجاده من على «البريك» والكلاتش حيث ألصق صورتين لـ«لينين» و«ماركس» أخذ يدوس عليهما.. علق الجاوي: لا حول الله بايخلوا نص شعبنا مجانين.

## غليان عدن.. الدحان

كانت عدن في مطالع السبعينيات من هذا القرن تغلي في فوهة بركان وقد أخذ الناس يتحولون بالتدريج إلى أشباح، وجوه مصفرة، أجساد هزيلة، عيون زائغة، شعور منكوشة تجللها الغبرة، وأخذ الكثيرون من الناس والعائلات المستورة يهيمون على وجوههم بحثاً عن لقمة تسد الرمق بعد أن شحت الموارد عقب التأميمات التي شملت كل شيء والتي لم تفد الدولة في شيء اللهم مدها بمسكن مؤقت لا تدري متى ينتهي مفعوله وقد لا يظهر له مفعول أبداً.

وكان الصحفي المرموق صاحب القلم الساخر صالح الدحان يسمى الحكومة: «حكومة الربع ساعة».

- ليش ياعم صالح؟ أفهمها يا أهبل: إنهم يخططون لربع ساعة قادمة فإذا نجحوا واجتازوا الربع ساعة بسلام، صفقوا من الفرح وأطلقوا خطة الربع ساعة الثانية.. مهزلة.. ثم يؤكد العم صالح أن فنجان الشاي الذي يشربه يكلف الدولة عشرة فناجين.. كيف؟ شوف اللي على الطاولة المجاورة والذي هناك.. وأولئك الذي في الركن.. كل هؤلاء يراقبون «عمك صالح» وهات يا أكل ويا شرب

على حسابي، وفي الأخير كلنا «مفاليس» تذكرت تعقيب عمر الجاوي على انفعال «العميد» وإحساسه أنه مطارد: لا حول الله بايخلوا نص شعبنا مجانين.

وسط هذا البلاء العظيم كانت «الماكينة» الدعائية تبيع قسائم الجنة في الدنيا وتمني الناس بالمن والسلوى.. بس.. بعد أن نقضي على أمريكا وحلفائها وعلى «الثورة المضادة»، ولكل أجل كتاب، ولا أدري أي ذهن عبقري تفتق عن فكرة إنزال الناس إلى الشوارع لتثوير الجماهير وإرهاب الطابور الخامس، وما عاد للناس من شغل شاغل إلا المسيرات بالفؤوس والعصي والطبل والزمر، و: «سالمين» نحن أشبالك وأفكارك لنا مصباح ..وأشعلناها ثورة حمراء بعنف العامل والفلاح.. لم تعد البلد تنتج أي شئ سوى الشعارات.

تحول مبنى الإدارة العامة للإذاعة والتلفزيون إلى ملاذ لأصناف مختلفة من البشر كلهم يجرون وراء عمر الجاوي للمساعدة أو لحل مشاكلهم المالية أو التوسط للإفراج عن معتقل، أو السؤال عن مفقود، وتجدهم يقعدون بالساعات في مكتبه وفي الممرات وعلى الدرج وفي الباب الخارجي.. وأخذ الجاوي يغرق في هموم الناس ولا يجد من ينقذه هو من الغرق.

أخيراً ننسحب أنا وعمر مثل لصين هاربين بعد أن نكون قد ضمنا وجبة غداء عند أحد الأصدقاء حيث نجد هناك بعض مريدي عمر الذين ما أن يهل عليهم كأنه خارج من «اليم» حتى يقفوا صفاً واحداً ينشدون النشيد الذي ألفوه ولحنوه خصيصاً لوليهم: عمر الجاوي أتى.. عمر الجاوي ذهب.. عمر الجاوي حديد.. عمر الجاوي ذهب.

## التأميم.. ومن قلك

كانت تلك الأيام مليئة بالمفارقات، مفعمة بالإثارة، غارقة في البلبلة واللا معنى.

وكانت العاصمة عدن قد أجهدت بمعنى الكلمة فتوقفت جميع المصاعد في شارع المعلا الرئيسي أجمل شوارع العاصمة وتوقفت خدمات إضاءة السلالم وجمع القمامة وأصبح على السكان صعود سلالم العمارات العالية في ظلام دامس والاصطدام بأكوام النفايات في كل منعطف.

كما انطفأ الحي التجاري «كريتر» فقد فقدت عدن بجرة قلم التأميم موقعها الاستراتيجي كمحطة ترانزيت وإعادة تصدير عبر البحار وكانت تنافس في ذلك هونج كونج وسنغافورة.

وأصبح حي الميناء «التواهي» واجهة العاصمة البحرية الذي كان يعج بالحياة على مدار ٢٤ ساعة مقفراً كأنه مسرح روماني مهجور.

وفي العموم سقطت المدينة في هوة «العدم» وانطبق عليها ما وصفها به صحفي غربي من أنها أشبه بمدينة مصطنعة أقامها مخرج في الصحراء لتصوير فيلم سينمائي، وبعد أن دبت فيها الحياة لعدة أسابيع هجرتها الأضواء وتركها الممثلون وفريق العمل لتواجه مصيرها المحتوم.

نعم.. كانت عدن تواجه مصيرها المحتوم بكبرياء ولا مبالاة وبقدرة عجيبة على التكيف مع سوافي العاصفة وكان ألطف ما في الأمر هو المساواة في الظلم الذي قيل عنه أنه نوع من «العدل» فقد «اختلست» جلود الجميع عدا قلة قليلة لم تكن تستفز الملأ بنعمتها

المحدثة في تلك الفترة المبكرة.

كان وزير الإعلام «عبدالله الخامري» ملك الأناقة بقامته القصيرة وقمصانه «المودرن» ونظارته الذهبية وعطوره الباريسية وحركات يديه المدهشتين أثناء الحديث، وكان يبدو مثل نجم مضيء في سماء سوداء فقد كانت «الموضة» في تلك الأيام لبس «الكاكي» والبهذلة والحديث بكلام مبهم غير مفهوم، أخرج من اللعبة جيلاً كاملاً لم يعد قادراً على الإصغاء أو الحديث.. وفي العموم كان «الخامري» رجل حوار مدني النزعة شاعري الرؤية.

وقد استضفته في حوار تلفزيوني حول مشاكل تطبيقات قانون التأميم، وكان من ضمن الأسئلة سؤال عن مدى قانونية استقطاع أقساط أثمان بيوت باعتها الحكومة السابقة لموظفين وأممت المنازل الحكومة الحالية مع الاستمرار في تحصيل أقساط ثمن بيوت لم تعد لهم.. فأجاب الخامري: عليهم أن يستمروا في السداد، فالتأميم شيء ومستحقات الخزينة شيء آخر.. ثم: من قال لهم يشتروا.

عندما سألني عمر الجاوي عقب المقابلة عن انطباعي من خلال لقائي مع صديقنا الوزير قلت له ما قاله الأعرابي عن نحويي البصرة: أنهم يتكلمون بلغتنا عن لغتنا بما ليس من لغتنا.

تذكرت قصة الرئيس «سالمين» مع المواطن الغلبان من «الشيخ عثمان» الذي أشتكى له ضعف حاله بعد تأميم مطعمه ذاكراً أنه متزوج من أربع فأجابه الرئيس: ومن قال لك أن تتزوج أربع.. فبهت المسكين، فقال للرئيس بعفوية: والله لو كنت أدري أنك باتحكم البلاد ما كنت تزوجت أصلاً، بس أنا تزوجت الأربع أيام المرحوم (يقصد الإنجليز).

## الجرادة وصانونة الموز

في ذات يوم من عام ١٩٧١ جاءنا إلى الإدارة العامة للإذاعة والتلفزيون بعدن الشاعر الكبير محمد سعيد جرادة صاحب الروائع الغنائية التي شدا بها كبار المطربين اليمنيين والفقيه العالم الذي عارض باقتدار إمام اليمن في قصيدته التي أرسلها إلى عبد الناصر يفند فيها القوانين الاشتراكية والتي قطعت شعرة معاوية فيما بينهما (الإمام وعبد الناصر)..

الجرادة الصعلوك الجوال أيضاً الذي يفيض في مجالس «القات» فكاهة ودعابة ومرحاً ويتقبل بصدر رحب ومحبة كل ما يرميه به الآخرون من سهام طائشة أو نافذة، ومن ذلك ما كتبه عنه الصحفي صاحب الباع الطويل في الكتابة واللسان الأطول في النقد والحرابة «أحمد شريف الرفاعي» الذي قارن بين الجرادة وشوقي وعنوان مقالته بما اعتبره قفشة صحفية مثيرة: الفرق بين الجرادة وشوقي كالفرق بين الجرادة والطيارة..

وبرغم أن الأستاذ الجرادة الذي علم أجيالاً متعاقبة براتب يكاد لا يقيم الأود لأنه لم تكن لديه شهادات.. فقد كان عصامياً علم وثقف نفسه، برغم أنه كان من شعراء الصف الأول الكلاسيكيين على مستوى الوطن العربي، إلا أنه، وهو ابن النكتة قد أعجبته قفشة الرفاعي صار يرويها في المجالس ويضحك لها من أعماقه.

الجرادة ملك النسيان وأستاذ «الطوسان» على حد تعبير أهل عدن الذي طالما شبت الحرائق بسببه في العديد من مجالس «القات» لأنه يشعل السيجارة الأولى ويمج منها نفسين ثم ينساها ولا يلبث أن

يشعل الأخرى.. لذلك فقد كان من فكاهات المجلس ضبط الجرادة في مثل تلك الحال.. وله في مجال «الطوسان» نوادر وحكايات تحتاج إلى كاتب مثل الجاحظ ليؤلف منها كتاباً مثل كتاب «البخلاء».

المهم.. جاءنا كما أشرت في بداية المقال وقال: يا إخوان.. أنتم جميعاً مدعوون عندي على صانونة موز «إدام».

. ولم يكن أحد في ذلك الصقع من القطر اليماني قد سمع بصانونة الموز، رغم أن المطبخ العدني من أفضل المطابخ العربية.

هرش الجاوي صلعته وقال: بطل المزاح يا جرادة.. الآن معانا شغل.. فأجاب الجرادة: الله يلعنك أنته وشغلك.. عامل زعيم ولا أنت داري أيش يجري في البلاد. رد الجاوي: أنا ابن عبدالله أيش الموضوع.

جلس الجرادة على الكرسي ومازال يلهث وروى القصة التالية: شوف يا سيدي.. خرجت بعد صلاة الفجر حسب توصيات الزوجة لأكون أول الواقفين في طابور شراء «الخضرة» من هذه «البلوة» التي سموها جمعية تعاونية، ومع ذلك كان حوالي عشرين شخصاً قد سبقوني وحوالي ١٥ حجراً مصفوفة ضمن الطابور ولا يتجرأ أحد على زحزحتها لأنه قد لا يعود إلى بيته أبداً.. المهم فتحت الجمعية أبوابها في الثامنة ووصلت الشباك في التاسعة والنصف فسجل الكاتب طلباتي وطلب مني الوقوف في طابور شباك الدفع ووصلت في الحادية عشرة والنصف وأرشدني أمين الصندوق إلى طابور استلام الخضرة ووصلت في الواحدة مع أذان الظهر.. قرأ الموظف الورقة: بامية ما فيش.. خذ موز.. طماطم ما فيش خذ موز.. وهكذا

تحولت كل طلباتي إلى موز.. طيب أريد فلوسي.. لا ممنوع. عدت إلى البيت على رعود الزوجة التي لا تدري شيئاً مثلك يا «جاوي» عما يدور في البلاد، وكان الأولاد قد عادوا من المدرسة يبكون من الجوع.. رميت الموز في وجهها وقلت: اعملي صانونة موز.. وجيت أعزمكم.

## الجرادة.. ومال.. وضرب من المحال

كنت أعرف أن شاعرنا الكبير محمد سعيد جرادة مستور الحال على أساس الحكمة الشهيرة: أشاعر ومال.. ضرب من المحال.. ولكنني لم أكن أعلم أن ذلك الذي أثرى وجدانات الناس بأنفس أنواع اللآلئ المشعة من الشعر يعيش في ذلك الفقر المدقع، فقد زرته في بيته عقب طبخة «صانونة الموز» الشهيرة، وأقول بيته من باب المجاز وتسميه الشيء بضده، وإلا فهو شيء أشبه بعش «اللقلق» المعلق.. حاجة مثل القبعة على رأس «شماعة» تصل إليها بسلم خشبي تئن مفاصله كأنما صنع منذ أيام «دقيانوس».

. كيف استقر على هذا النحو؟ هذا من باب المعجزات.

إذاً.. الجرادة هو الوحيد من قبيلة الشعراء والمثقفين الذي لن يفقد شيئاً، ولذلك بينما كان المكلومون يئنون كان يلتقط المفارقات يسري بها عن نفسه وعن الآخرين.. أهذا بيتك يا أستاذ..؟ ياله من قصر منيف تركض فيه الخيل.. أضفت: أنا لا أخشى الصعود.. ولكن كيف النزول.. رد عليّ بأنني لم أر شيئاً بعد فثمة الفرش والطنافس والعدد والديكور المبهر الذي سأراه في الداخل وأخذ يردد أبياتاً من الشعر:-

وربت فـأرة بالقـرض ليــلاً متى ما رمت نومــاً أزعجتني
إذا شـعـرت بيقظتي استكنت وإن شعـرت بنومي أيقظتني
أقول لها اقرضي وكلي نهاراً وفي الليل اتركيني واستكني

تذكرت ساعتها قصيدة الجرادة «لقاء» التي يشدو بها الفنان الكبير محمد مرشد ناجي، كم من القلوب أسعدت، وكم من الصبابات أثارت، وكم تناجى بها العاشقون بينما صاحبها يتجرع البؤس في هذا الجحر:

يا حبيبي أي عيـد أي سـعـد سوف تبقى هذه الليلة عندي
عنـدنا ورد حـكى رقـة خـد ومـدام أشبهت فـرحـة وعد
وفراش ناعم المخمـل وردي وأحـاديث صـبابات ووجـد
سوف أحيا هذه الليلة وحدي وسيحياها رواة الشعر بعدي

كان الجرادة الساكن بحارة «الهاشمي» أحد نجوم مدينة «الشيخ عثمان» لم يخنه البؤس والفقر ولم يلو الزمن ذراعه الشعرية الطائلة وكان الجميع يلقبونه بـ«الأستاذ» وحين شحت الأرزاق، وهانت الأعناق وتطلع أكثر الناس إلى الانعتاق في عدن مطالع السبعينات كان الأستاذ يبسط الأمر على النحو التالي:

قصتنا مع «الجماعة» مثل قصة صاحب الدب الذي كان يحبه حباً لا شك فيه ولكن على طريقة «الدببة» فحين رأى ذبابة على وجه صاحبه أخذته الحمية والغيرة فأراد إبعادها بل وتأديبها فما كان منه إلا أن لطم وجه صاحبه مقتلعاً عينيه وأذنيه وأنفه تعبيراً عن «الحب العظيم».

## كلمات قاتلة

أخذت الكلمات والاصطلاحات واللغة الجديدة تطحن في طريقها كل شيء، تهدم أشياء حقيقية تبني عالماً من الوهم، وكانت جبال عدن ترتجف تحت سياط الكلمات، وثمة من همس بكلمات في آذان القيادة بأن الخطر الداهم سوف يأتي من « فرشات» باعة الخضار ومن قوارب الصيد البدائية التي يتعيش منها ناس من أفقر خلق الله وأكثرهم بؤساً، وعلى إثر ذلك ثمة غارة قانونية جعلت آخر معقلين للرأسمالية والبرجوازية أثراً بعد عين وتم منع هواة صيد السمك من رمي صنانيرهم في البحر وهي العادة التي درجوا عليها منذ عشرات السنين ذلك أن بحر الله الكبير لا يتسع لهم ولحكومة الثورة معاً.

وهكذا «تطوبرت» البلاد وأصبحت طوابير المعيشة شغل الناس الشاغل وحديثهم الدائم، ولم يعد هناك سمك طازج واختفت أنواعه الجيدة التي يعرفها الناس وظهرت أنواع جديدة ما أنزل الله بها من سلطان ومنها نوع سماه الناس «شارلستون» نسبة إلى البنطلونات الضيقة من أعلى والواسعة من أسفل، كما نزل إلى الأسواق اللحم الأسترالي « المكفن» بلباسه الذي يشبه كفن الأموات.. فقد تم حرمان العاصمة من اللحم المحلي بقرار صارم، وانشغلت القوات المسلحة بتفتيش السيارات تفتيشاً دقيقاً فإذا كنت قادماً إلى عدن من أبين أو لحج ووجدت بحوزتك قطعة لحم لأطفالك الجائعين تكون قد وقعت تحت طائلة قانون لا يرحم.

وقد روى لي أحد الأصدقاء أنه دعا على الغداء قائد الميليشيا آنذاك «حسين قماطة» الذي تجمعه به قرابة من نوع ما ورأى من

العيب أن يولم له من «اللحم المكفن» فذهب إلى أبين المشهورة بأجود أنواع اللحم في اليمن، فاشترى رأس غنم وذبحه ثم أخفى اللحم في «التاير» الاحتياطي للسيارة بعد أن أفرغه من الهواء وقد نجحت خطته نجاحاً باهراً حيث لم تكن القوات المسلحة آنذاك تستخدم أجهزة الكشف بالأشعة عن اللحوم.

المهم ـ يقول صاحبنا ـ قضى قائد الميليشيا قضاء مبرماً على اللحم وشكرني، وفي اليوم الثاني فوجئت باستدعائي للتحقيق بتهمة تخريب الاقتصاد الوطني وتهريب الثروة الحيوانية، وكان ضيفي هو من بلغ عني وبعد عناء دام عدة أشهر وصلت أخيراً إلى مكتب قائد الميليشيا نفسه الذي حذرني وأنذرني قائلاً : إن الموت ينتظرك إذا كررت هذه الفعلة السوداء .. ولا يعتقد أحد أن في ذلك مبالغة فقد طارت رؤوس كثيرة بسبب علبة « نيدو» أو ما هو أقل شأناً من ذلك.

وعلى ذكر الكلمات وخطورتها حيث لا يوجد في الحياة أنعم، وأقوى من الماء إلا هي، أذكر أنه جاءني ذات يوم صديق قديم جمعتني به كرة القدم وفرقتنا السياسة، وكان «عبدالله السبولة» يشتغل «فراشاً» في البنك المركزي ثم وجد نفسه على رأس «الأشكال النضالية» في البنك من نقابة ورقابة وغيرهما، وكان في موقعه ذاك أخطر من أكبر مسؤول في البنك، فدانت له الرقاب ولم تبق سوى الكلمات، فقد كان يعجز عن النقاش وهو الذي لا يفك الخط ، المهم قال لي أنه سيأتمنني على سر خطير وقد ذهبنا سوية إلى ظلال قلعة جبل « صيرة» حيث أخرج كتيباً عن «الاشتراكية» طلب مني بخجل أن أشرح له محتوياته وقد أخذت في الشرح ساعتين أو

نحـو ذلك حتى أصبت بالإعياء فـقـال لي: مـا فـيش فـايدة ورمى الكتيب إلى الأمـواج.. وبعـد فـترة من الوقت أذيع خـبر انتحـار «عبدالله السبولة».

- وأظن أن الكلمات هي التي قتلته.

## درويش- والسلطان عوض الحامد

كان اليسار العربي يفاخر بتجربة عدن لا على طريقة الدب الذي اقتلع عـيني وأذني وأنف صـاحـبـه من «شدة الحب» والتي ذكـرناها أمس عن لسـان أسـتـاذنا الجـرادة، لأن هذا اليسـار كـان أعـقل من أن يقـتل دجـاجـة تبـيض ذهبـاً، ولكن على طريقـة الأب الذي ذهب يخطب لابنه فلما رأى جمال الفتاة وراقت في عينيه خطبها لنفسه مدعياً أنه بالكاد أقنعها هي وأهلها بالقبول به.

ذلك أن هؤلاء أقنعوا الاتحاد السوفيتي في ذلك الزمن الملتبس أن زمام التـجـربة في أيديهم كـمـا أقنعـوا جـمـاعـتنا بأن زمـام الإتحاد السوفيتي في أيديهم، ويبدو لي أن السوفييت لم يكونوا بذلك الغباء المفـتـرض، ولكن في إطار نظرة أوسع لدولة عـظمى لم يكن لـديهم مـانع من هذا الزواج الكاثوليكي ما دام يصب في مصلحتهم. فقد كـانوا يقولون لـليسـار العربي والعالمي مـا كـان يقـوله هارون الرشيد للسحب العـابرة فوق بغداد: إمطري حيث شئت فإن خراجك آتٍ إلي.

على كل حال، هذا خارج موضوعنا، إنما هو الكلام يأخذ بعضه بأعناق بعض، وتلك آفة الصـحـفيين وأنا منهم، وكـان الغرض أن أقـول إن بلادنا صارت إلى حد ما مكاناً للفرجة يقـصدها أناس من

أماكن شتى لكي يروا معجزة «القبائل» الاشتراكية المتصالحة، وكان من نصيبي مرافقة الشاعر الكبير محمود درويش واستضافته تلفزيونياً.

أما الاستضافة في برنامج «فنجان شاي» فينطبق عليها المثل القائل «إذا كثر الطباخون احترقت الطبخة»، لأنه من شدة انبهار الوسط الثقافي بالشاعر أصر عدد كبير من المثقفين على مشاركتي في محاورته فأخذنا «نتناقر» فيما بيننا أمام خلق الله الذين يريدون سماع درويش.

وأما المرافقة فقد صحبت الشاعر إلى لحج ليرى على الطبيعة تجربة التعاونيات الزراعية وكان المحافظ «عوض الحامد» قد اشتهر في تلك الأيام بغاراته المفاجئة على «حوش» وزارة الزراعة في عدن وأي وزارة أخرى غير محروسة جيداً لأخذ ما تيسر من السيارات والمعدات دون أن يستطيع أحد الوقوف في وجهه، وكان أهل لحج يسمونه لشدة سطوته «السلطان عوض».. وللحق فقد كان يحكم منطقة مساحتها أضعاف ما كان يحكم سلاطين «العبادل» الشهيرون وبين يديه من الصلاحيات أكثر مما كان في أيديهم خاصة بعد تأميم الأراضي الزراعية.

ما أن علم المحافظ بوصول «درويش» حتى أصر على مرافقتنا بسيارته «الجيب».

- وهكذا أخذ يطير بنا في طرق غير ممهدة يصعد تلاً وينزل منحدراً والعجاج يغطينا.. فقد كانت السنة مجدبة حتى أحسست أن «محمود» سيلفظ أنفاسه وأن الهدف من الزيارة سيفسد بسبب «عوض الحامد».

أخيراً دعانا إلى غداء «ممتاز» تعويضاً لنا عن العناء، ولكنه ما أن رأى المصور التلفزيوني الذي كان يرافقنا لتسجيل زيارة «محمود درويش» حتى طار صوابه، فانقض عليه وأوقعه أرضاً هو و«الكاميرا» الثمينة التي صادرها بعد ذلك ولم يرحم دموع المصور التي تعد عهدة في ذمته.

لماذا يا عم عوض؟ «تريدهم يشوفونا بالتلفزيون ويقولون علينا برجوازيين قدامهم خروف مشوي».. طيب يا عم عوض كنت باتقول له لا تصور ببساطة.. أجابني: ببساطة أنت ما تعلمت النضال أفترض أنه هرب.. وين بايهرب في هذه الوديان ولماذا؟ نحن دايماً ننظر للبعيد وإلا ما كنا حكمنا البلاد.

## السلطان عوض شاعراً وعاقلاً

وقفنا أمس مع «محمود درويش» على مائدة محافظ لحج «عوض الحامد».

- وللحق فإن محمود قد انتابه ذعر شديد بعد أن رأى المحافظ ينقض على المصور التلفزيوني المسكين حتى انبطح الاثنان أرضاً، ولا يخفى على فطنة القارىء العزيز أن العم «عوض» كان مدججاً بترسانة سلاح.. صحيح أن الرشاش لم يكن بيده وإنما مسنداً إلى الجدار بجانبه، لكن المسدس وعدِته إضافة إلى عدد من القنابل اليدوية كانت مخبأة في سائر أنحاء جسده بجانب كم السلاح المهول مع المرافقين الذين كانوا محيطين بنا إحاطة السوار بالمعصم، وتصور - يا سيدي- لو أن قنبلة واحدة فقط سقط عنها صمام الأمان أثناء قفزة المحافظ الشرسة، إذاً لكنا رحنا فيها «فطيس» ولكانت الأمة

العربية قد فقدت أعظم شعرائها ولما كنت أكتب لكم هذا «المسلسل» اليومي على حد تعبير صديقي «علي شعنون».

ولأن ما خفي كان أعظم، فقد كان المحافظ «عوض الحامد» يخبئ للشاعر درويش مفاجأة مدوية هي بمثابة «الحلاية» بعد تلك الوجبة الدسمة التي كدنا أن نفقد بسببها حياتنا، فبعد أن أشعل السيجار الكوبي ومج نفسين نفثهما في وجه «درويش» الذي بلا شك كان يفكر في طريقة للخلاص من هذه «الورطة الفجائعية» أمر المحافظ أحد مرافقيه بإحضار «المجلدات» من السيارة.

همس محمود في أذني أيه مجلدات؟ والله ما أدري، سألني: ما فينا نرجع على عدن؟ والله يا سيدي الضيف في حكم المضيف.. وما دمت في حضرة «عوض الحامد» فوكل أمرك إلى الله.

جيء بالمجلدات فأبلغ المحافظ ضيفه أنه قد نظم كتاب «رأس المال» لماركس شعراً وأنه في هذه المجلدات يوجد هذا الكنز الثمين وأنه سيقرؤها من الجلدة إلى الجلدة على «محمود» ليسمع رأيه ومداخلته وما قد يرتئيه من تحسين هنا أو إصلاح هناك. وكاد «محمود» أن يصاب بالإغماء لولا أنني أسرعت بإسعافه إلى السيارة وأنا أؤكد بالإيمان المغلظة للعم «عوض» بأننا سنعود غداً منذ الصباح الباكر لنكون تحت أمره، ذلك أن الشاعر لا بد له أن يتحضر لأمسية شعرية في سينما «بلقيس» بعدن.

هذا ما كان من أمر محمود درويش.. أما ما كان من أمر عوض الحامد فقد ترك المحافظة في فترة لاحقة واعتزل الناس ثم احترف الصيد، وكان يعرض الأسماك الكبيرة للبيع بأسعار أقل من الصغيرة

فإذا سؤل عن ذلك.. قال: إن الجهد المبذول لصيد الكبيرة أقل منه لصغار الأسماك.. ثم يقول لسائله: يا حمار.. هذه الكبيرة خلاص ما راح تتعلم شيء.. أما الصغار فتستطيع تربيتهم على كيفك، وكان يقطع المسافة من « الشيخ عثمان» إلى «خور مكسر» حافياً فإذا وقفت له سيارة يرفض الصعود قائلاً أنه مستعجل، ولم يكن به مس أبداً، إنما هو العقل في أفضل حالاته تجلياً والدليل أنه صعد الباص المتجه إلى «عدن الصغرى» وأوقفه في منتصف الطريق ثم أمر الركاب بالنزول فنزلوا وأمرهم بالصعود فصعدوا فبصق في وجوههم وهو يقول: الله يلعنكم من محكومين ما في واحد منكم سأل ليش ننزل وليش نصعد. ما حد قال: يمكن الذي وقف الباص مجنون.. وهكذا تركهم وعاد ماشياً على قدميه!!

## مؤتمر صحفي للغربان

لم يكن أجدادنا العرب مجحفين بحق الغراب عندما رموه بالشؤم ووصفوه بأنه «غراب البين» أي نذير الفراق وعلامة البلاء، ولو كنت في تلك الأيام الرمادية أزجر الطير وأقرأ حركاتها في السماء، لما كنت قبلت بالمهمة التي كلفني بها «عمر الجاوي» المدير العام للإذاعة والتلفزيون بعدن في مطلع السبعينات من قرننا هذا، ذلك أن الغربان كانت قد سيطرت على سماء المدينة سيطرة تامة وقضت على كل طائر آخر وشكلت عصابات تعيث فساداً حيثما حلت وارتحلت، وعلى كثرة ما دالت دول في اليمن الديموقراطية آنذاك، إلا أن دولة الغربان لم تدل وسبحان من له الدوام..

وتفصيل ذلك أن الرئيس سالم ربيع علي قرر عقد مؤتمر صحفي

له، وإذا كان أي مسؤول من الدرجة العاشرة يعقد الآمال الكبيرة على أول لقاء له مع مرؤوسيه ولو كانوا ثلاثة أفراد فكيف برئيس دولة يخاطب الملايين؟

وقد خابرني الجاوي على عجل «مسجلك ودار الرئاسة يابن النقيب بيض الوجه بسؤالين ثلاثة من الذي يعجبوا، وأكمل تسجيل وقائع المؤتمر لنذيعها عقب انتهاء اللقاء».

قل استعديت وتحزمت ووضعت في رأسي كم سؤال أخذت أتحفظهم وأتمرن عليهم بيني وبين نفسي حتى وصلت دار الرئاسة حيث قابلتني عاصفة من الغربان لم أشهد لها مثيلاً في حياتي كلها إلا في فيلم «الطيور» لمخرج الرعب العالمي «هتشكوك».

تمتمت: يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف.

سألت قائد الحرس الجمهوري آنذاك: «حامد مدرم» عن هذا الغضب السماوي. فرد علي ساخراً: «أنا أخو «عبد النبي» مالك خايف.. «شع» الغربان ما هي أقوى من الإنجليز ذي طردناهم بالرصاص المذلق».

قلت له: أنا لا أسألك عن الحرب يا «جنرال» فقد خلفناها وراءنا، أنا أسألك كيف أسجل المؤتمر الصحفي للرئيس وسط أصوات هذه «الأوركسترا» الغربانية التي تخرق الآذان؟

المهم عقد المؤتمر الصحفي على خير ما يرام وشربنا القهوة بالزنجبيل وعبرنا عاصفة الغربان التي لم تهدأ ولكن في طريقنا للخروج من دار الرئاسة هذه المرة، وحين وصلت إلى الإذاعة وكان الجاوي بانتظاري ومعه اثنين من الفنيين فتحنا التسجيل فإذا بنعيق

الغربان قد غطى على كل شئ إن هي إلا حشرجات بشرية مكتومة لم تفهم منها شيئاً.

قلت للجاوي: ما العمل؟.. قال: شل نفسك روح واتخبا لك أربعة خمسة أيام لما أتصل بك، شوف صاحبنا «يقصد الرئيس» ما يعرف المزاح.. وحذرني: مش في بيتك، شوف لك بيت ثاني وإلا ما بايفهموا أصل الموضوع إلا وجلدك قد وصل المدبغة.. من يومها أصبح بيني وبين الغربان ثأر.. وأي ثأر.

## مع سالمين

تجلى «يوم الغربان» الذي أشرت إليه في زاوية الأمس عن أسرار عجيبة أولها أن غربان «عدن» قد اتخذت من منطقة «دار الرئاسة» مقراً مركزياً لها وذلك بسبب كثافة الأشجار هناك الأمر الذي كشف عن موت الأشجار في بقية أرجاء العاصمة بسبب الإهمال نظراً لانشغال الجميع بالأعمال الثورية بما في ذلك عمال البلدية.

وثانيها أن الغربان قد توحشت بسبب انعدام الأكل الفائض عن أرزاق الناس والذي تعودت عليه في فترات سابقة الأمر الذي دفعها للقضاء على سائر أجناس الطيور الأخرى، لأن المجاعة وصلت مستوى «قطع الرأس ولا قطع المعاش» و.. «ياروحي ما بعدك روح"

وثالثها أنه في «يوم التسجيل المشؤوم» كان أحد الوافدين الجدد على دار الرئاسة من الأطفال الذين لا يعرفون طباع «غربان المدينة» قد أمسك بأحد فراخ الغربان الصغيرة وأخذه معه ببراءة ليلعب به داخل القصر وكان ذلك سبب «عاصفة الغربان» التي لم تنته إلا

بإطلاق سراح الطفل الغرابي الأسير بعد تدخل من قائد الحرس الجمهوري آنذاك «حامد مدرم».

ورابعـها أن الرئيس سالم ربيع علي قد تفهم «الظروف الموضوعية» لفشل التسجيل الإذاعي، فلم يأخذ على خاطره ولم يستمع إلى أصحاب «نظرية المؤامرة» التي كانت رائجة آنذاك، وبذلك سلمت من العقاب، وعدت إلى عملي معززاً مكرماً.

وقد اغتنم عمر الجاوي المدير العام للإذاعة والتلفزيون أول فرصة سنحت ليثبت للشامتين أن اختياره لي كمدير للإذاعة لم يكن من باب قصر النظر، ولكنني - مع الأسف الشديد - خيبت ظنه، دون قصد مني، وإنما هو سوء الحظ واضطراب الأوضاع الثورية العربية آنذاك.

وتفصيل ذلك أن الرئيس سالم ربيع علي قرر القيام بأول زيارة خارج البلد إلى ليبيا بدعوة من العقيد معمر القذافي لحضور الاحتفالات بمرور عام على جلاء الأمريكان من قاعدة «هويلس».

وقد ذهبنا في طائرة مدنية كانت متجهة إلى القاهرة حيث تم وضع ستارة تفصل الرئيس والوفد «١٧ شخصاً» عن باقي الركاب وكان من ضمن الوفد وزير الخارجية آنذاك علي سالم البيض الذي أجهد نفسه طوال الرحلة محاولاً إقناع الرئيس أن الأردن بالنسبة لفلسطين هي بمثابة فيتنام الشمالية بالنسبة لفيتنام الجنوبية، وأن من الضروري أن يكون هذا العمق الإستراتيجي بيد قوة ثورية ليمكن تحرير فلسطين.

وكان الرئيس يهز رأسه دون إيجاب أو نفي، وقد حاولت مراراً

التدخل بناء على تحليلات كتبها آنذاك محمد حسنين هيكل تفند هذه النظرية، ولكن الرئيس لم يكن يدعني أسترسل، وقد علمتني الحياة بعد ذلك أن حلمه معي كان عظيماً لأنه أساساً لم يكن يعرف من أنا ولا ما هي مهمتي في الوفد وقد أبلغني بذلك المرافق العسكري أحمد صالح حاجب الذي سحبني إلى آخر الطائرة وهو يقول لي: يا داخل بين البصلة وقشرتها.. الخ.. وفهمت الرسالة.

أما كيف فشلت مهمتي فشلاً ذريعاً فذلك ما سوف أفصله غداً.

## في طرابلس

قد يسألني سائل كيف ذكرت في زاوية الأمس أن الرئيس سالم ربيع علي لم يكن يعرفك أثناء الرحلة إلى طرابلس الغرب بينما كنت قد أشرت قبلها إلى تغطيتك مؤتمره الصحفي الأول الذي أفسدت عاصفة «الغربان» تسجيله الإذاعي، وأجيب بكل بساطة، أن تلك هي الحقيقة، ففي تلك الأيام كانت عدن تمور بأكداس من البشر القادمين من مختلف أنحاء البلاد يبحثون لهم عن موطئ قدم.

وكان الرئيس يلتقي المئات يومياً، فالسلطة كانت تخلق أدواتها وأجهزتها ميدانياً على غير ما نسق وكان هناك فراغ هائل في الأرياف لابد أن يملأ، وعلى فرض أن الرئيس رآك فكيف له أن يتذكرك أو يطابق صورتك على اسمك وسط ضجيج آلاف القادة الذين انشقت عنهم الأرض مصدقاً وصف الرصافي:

قومي رؤوس كلهم      أرأيت مزرعة البصل؟!

المهم وصلنا طرابلس بعد أن نزل الركاب في القاهرة وكانت القيادة الليبية في استقبال الرئيس ربيع وقد ذهبنا في سيارات جيب

إلى أحد قصور الضيافة فقد كان ممنوعاً استخدام السيارات الصالون آنذاك في ليبيا بالنسبة لدوائر الدولة وكانت طرابلس مغمورة بشعارات ثورية بينها شعار منتشر بكثرة يطالب بنبش قبور المستعمرين الإيطاليين لأن رفاتهم يدنس أرض ليبيا، وما أن استقرينا في غرفنا حتى جاء أحد المرافقين ليبلغنا أن الرئيس وخاصته وكبار الرسميين سيظلون في القصر أما البقية فإلى فندق «الودان».

ولأن الاحتفالات كانت عامة جداً تشهدها وفود من مختلف أنحاء العالم في إطار تنظيم مبسط لا يعترف بالبروتوكول ولا التعقيدات فإن تلك النقلة إلى «الودان» جعلتني لا ألتقي بالوفد إلا في المطار، ولكم حاولت جاهداً أن أبعث بأية رسالة صوتية إلى إذاعة عدن دون جدوى فأسلمت أمري لله وأخذت أستمتع بما لذ وطاب من الموائد العامرة في فندق «الودان» الجميل ذلك أن الفرق بيننا وبين إخواننا الليبيين أننا كنا ندفع ثمن الشعارات من بطوننا الجائعة أما هم فقد أعطاهم الله بسطة في الرزق جعلت مردودات شعاراتهم الثورية أقل وطأة وأخف وقعاً على الشعب.

في مطار طرابلس الدولي ونحن نستعد للعودة إلى عدن، وبحضور القذافي والقيادة الليبية انتظرنا الطائرة اليمنية التي تستقل الرئيس أكثر من ساعتين دون أن تصل أو تبعث بما يشير إلى قرب وصولها حتى وصلت أخيراً برقية عاجلة بأنها لن تأتي حيث أنها متعطلة بأحد المطارات وتنتظر مهندسين وقطع غيار، وقد عرض الزعيم الليبي طائرته الخاصة التي لم تكن تتسع سوى لثلاثة عشر شخصاً وعليه فإن أربعة سيعودون إلى «الودان» وكنت منهم.

وقد نشبت أزمة ومناوشة كلامية وصلت أصداءها إلى آذان

الرئيسين بين العائدين إلى الفندق وسكرتير الرئيس ربيع عبدالله الملاحي الذي كان كريماً في كل شئ إلا في الفلوس ولم تكن قد صرفت لنا أي بدلات سفر وأمامنا كم يوم في طرابلس وكم يوم في القاهرة وجميعنا على «الحديدة» تماماً.

## مفقود في القاهرة

أخيراً.. بعد أن كادت أرواحنا تزهق من الأخذ والعطاء مع الشاعر والأديب وسكرتير الرئيس سالم ربيع علي عبدالله عبد الكريم الملاحي، في محاولات مستميتة لإقناعه بضرورة أن يمنحنا بعض النقود تحسباً للظروف ولأنه من غير اللائق أن يبقى أعضاء وفد رئاسي هكذا على باب الله، و.. و.. و.. و.. من تلك الحجج التي لا يستمع إليها الملاحي ولو نظمتها شعراً، لأنه مشغول أساساً بحجج عدم الصرف.

أخيراً بعد أن علت أصواتنا حتى لامست آذان الرئيسين القذافي وربيع ولفتت أنظار رجال الأمن أدرك الملاحي أن لا مفر من القدر فنظر إليّ نظرة هائلة لتأكده من أنني وراء هذه المصيبة فما ثم من شعرة سوداء في جلد الوفد الأبيض المتناسق غيري وقال: الحساب بيننا في عدن..قلت له: أكلني اليوم وموتني بكره.

وفي حركة مسرحية أعطانا الملاحي ظهره وأخرج ٤٠ جنيهاً إسترلينياً بالوفاء والتمام لا أدري من أي جيب سحري وقام بتسليمها لطباع الرئيس مع تعليمات صارمة بأن لا يصرف منها جنيها وأحداً إلا لضرورة لا مفر منها على أن يقوم بأخذ إيصالات وتوقيعات أصولية.. وعلى ضآلة المبلغ فقد تنفسنا الصعداء ونحن

نرى الملاحي يهرول مبتعداً عنا والألم يعتصره. ولكنه ما أن ابتعد قليلاً حتى عاد كأنما نسي شيئاً فاستعذنا بالله ولكن جاءت سليمة، فقد عاد فقط ليؤكد تعليماته.

قبل أن ترتفع طائرة الرئيس في السماء كنا الأربعة العائدون إلى فندق الودان نتقاسم المبلغ الثمين في زاوية صالة الشرف بمطار طرابلس الدولي وقد ضربنا بتعليمات عبدالله عبد الكريم الملاحي عرض الحائط.

لم يقصر الإخوان الليبيون معنا فحجزوا لنا تذاكر سفر بالدرجة الأولى إلى عدن عبر القاهرة، وكان الرئيس قد أعطى أوامره لسفيرنا في القاهرة بأن نسافر على أول طائرة ولكنني لسوء حظي لم أكن أعلم بهذه الأوامر وكنت ضحية لموقف لم يكن في الحسبان.

ففي مطار القاهرة الذي وصلناه في الصباح الباكر سمحوا لرفاقي الثلاثة بالدخول واستمهلوني عدة ساعات حتى يسألوا بشأني وزارة الخارجية، ولم يلبثوا أن سمحوا لي بالدخول، ولما كنت حديث عهد بالتخرج من القاهرة فقد ذهبت إلى شقة أحد الزملاء وهناك «غطست» خمسة أيام بلياليها بينما السفير يبحث عني ويتبادل الرسائل بشأني مع عدن والخارجية المصرية فقد اعتبرني «مفقوداً».

وحين ظهرت عليه في اليوم السادس تهلل وجهه ظاناً أن جهوده المضنية آتت ثمارها ومتشوقاً لسماع قصتي، فلما علم أنني كنت «أتصرمح» من الجيزة على الدقي إلى مصر الجديدة وأنه لا قصة ولا يحزنون تملكه غيظ وغضب جعلاني أفر هارباً من وجهه لأحجز على أول طائرة إلى عدن.

## مشكلة سالمين.. وقاضية في البار

أصبح الاستقطاب عنوان الحياة السياسية في عدن أوائل السبعينات وأخذ العنف بصورة مزايدة يتصاعد ليصبح عنواناً للاستقطاب وتحير الناس بين أناس يعملون فوق سطح الأرض بجلبة وضجيج وآخرين يعملون تحت سطح الأرض بدهاء وهدوء، وقد اندفع الرئيس «سالمين» على رأس التيار الأول، وكان رجلاً مقداماً لا يبالي بالعواقب، ولكن مشكلته أنه كان يسمع كثيراً ويتصرف بناء على ذلك السماع، لذلك فإنه كثيراً ما وقع في مآزق كان في غنى عنها.

من ذلك أنه نقل إليه إن الكثير من المسؤولين والموظفين يستخدمون سيارات الحكومة لأغراضهم الخاصة فاحتشد ومن حواليه لعدة أيام يقفون في مفارق الطرق ويقوم هو شخصياً بمراجعة دفاتر حركة السيارات وتوقيع العقوبات على المخالفين، وكان ذلك الأمر حديث المدينة.

ومن ذلك أيضاً أنه نقل إليه ذات يوم أن «مساوى أحمد» هاجم عبر مقال صحفي تجربة التعاونيات الزراعية فأمر بإحضار «مساوى أحمد» إلى أبين لتقديمه أمام محكمة شعبية يقوم عليها المنتفعون بالإصلاح الزراعي وليصدروا في حقه الحكم المناسب. وجيء بـ «مساوى أحمد» آخر وهو سائق بسيط في وزارة الزراعة ولا علاقة له بالكتابة، وكاد المسكين أن «يفطس» من الخوف وهو يقسم الأيمان أنه لا علاقة له بالكتابة لأنه كما قالها على استحياء «أمي».

أما «مساوى» الأصلي الذي كان أحد نواب وزير المالية في

الشمال أيام السلال، فقد انشقت له الأرض وابتلعته بعد أن سمع عن غضب الرئيس ولم يظهر إلا بعد أيام تبين لـ«سالمين» خلالها أن المقال لا يهاجم التجربة وإنما يجملها بالنقاش وتقليب وجوهها الحسنة، وكان «مساوى» الأصلي أذكى من أن يقع في هذه «الورطة» وهو الفقيه المتضلع خريج المدارس الدينية الذي لم يتحول إلى الماركسية إلا على كبر.

ولا ينافس بصورة عكسية في ذلك إلا صديقنا «صالح حليس» الذي كان «يمون» على الرئيس الكوري الشمالي «كيم ايل سونج» كأنه توأمه، فكان يسود صفحات جريدة ١٤ أكتوبر بمطولات لا يقرؤها أحد هي خليط من أفكاره وأفكار «كيم ايل سونج»،

ولكن «حليس» انتهى به المطاف بالعودة إلى الهدى حتى اصبح سكرتيراً شخصياً للشيخ عبد المجيد الزنداني.

في تلك الأيام كان الخارج من بيته مفقود والعائد مولود حتى إشعار آخر، وقد جرى إعدام زميلنا الصحفي أحمد العبد وسجن زميلنا عمر باوزير، وتم اعتقال الزميل جميل مهدي بسبب سوء حظ قاده إلى كافتيريا فندق الصخرة بالتواهي Rock Hotel فالتقى مع سائح والتقط معه صورة كانت القاضية في قصة مضحكة مبكية، وقد تشاءمت من تلك «الكافتيريا» لأن أحد الصحفيين اللبنانيين طلب مني مساعدته لإجراء حديث مع أول قاضية جرى تعيينها في عدن «حميدة زكريا» وكان ذلك حدثاً وأي حدث آنذاك، فاتفقت معها على إجراء اللقاء في مكان هادئ بكافتيريا «الروك هوتيل» فما كان من صاحبنا الهمام سوى نشر المقابلة تحت العنوان التالي: لقاء في «البار» مع أول قاضية في عدن.. الله يسامحه البعيد، فقد سبب

لي صداعاً لم أشف منه إلى اليوم، فقد ركبني الخوف من أن أمثل يوماً أمام القاضية فتكون القاضية.

## حكومة القطيع

مع شيوع الاستقطاب الذي أشرنا إليه يوم أمس في عدن السبعينات، والمساعي الحميمة لأصحاب «فوق» وأصحاب «تحت» لكسب الأنصار، أخذت تظهر على الساحة مسميات وظائف وهمية، وأصبح أولئك الذين يدورون في الشوارع وتحت «آباطهم» الملفات الغامضة رموزاً لمرحلة قادمة سينهار فيها الجهاز المدني برمته.

أعجبت عمر الجاوي المدير العام للإذاعة والتلفزيون فكرة «الوظيفة» الوهمية، فاخترع بعد ضغوط عليا هائلة لمراقب الإذاعة الموقوف عن العمل «ضرار عبدالوهاب» والذي كان «يلعب على الحبلين» وظيفة مراقبة البرامج.. ولكن.. بعد إذاعتها.. كيف ذلك يا «عم عمر»؟ نحن نحتاج إلى رؤية إستراتيجية، و«ضرار» عقل كبير حرام نخسره في تفاصيل العمل اليومي، ولو قدم كل شهر تقريراً واحداً يكفي..

ويضيف عمر الجاوي: «أما بيني وبينك.. بس لا تقول.. خلي أبوه يغرق بين الأشرطة.. لو خليناه سايب يابن النقيب ما تدري فين ومن بايلدغ».

أخذ الإحباط صيب الجاوي شيئاً فشيئاً، وكان يطالب بمبنى للإدارة العامة للإذاعة والتلفزيون ولإنشاء استوديوهات جديدة دون جدوى، فكلما أفرغت الشركات التي كانت عاملة في عدن أحد

المباني سرعان ما تستولي عليه جهة متنفذة، لذلك فقد قرر استخدام أسلوب الإغارات الخاطفة الذي كان قد اخترعه محافظ لحج «عوض الحامد» والذي يغير تحت جنح الظلام وأحياناً في وضح لنهار من عاصمته «الحوطة» على عاصمة البلد «عدن» لأخذ ما تيسر من آلات ومعدات وحتى الأعلاف «المشونة».

وهكذا قمنا بغارة على أشهر مبنى في العاصمة كانت تحتله شركة P&O «البينو» العالمية والتي كان رحيلها إيذاناً بانتهاء الدور العالمي لميناء عدن، وأخذنا منه طابقين، كما قمنا بغارة على الميناء لأخذ ست سيارات روسية «جيب» من أصل إرسالية لوزارة الدفاع التي «هنت» بها واعتبرتها هديه للإذاعة بعد مناورات الجاوي الكلامية البارعة.

أصبح الجاوي حائراً في توصيف الوضع حتى جاءني ذات يوم أحد أقاربي الساكنين في الأرياف «قاسم ناجي صالح» فسأله الجاوي: كيف تشوف أحوال البلاد يا والد؟ رد عليه: شوف يا أبني.. أنا «متسبب» على باب الله وعندي «صندقة» صغيرة في رأس جبل يافع، وأمس من بعد صلاة الفجر إلى صلاة العشاء وأنا أتنقل من «طابور إلى طابور» فقد كان يوم توزيع «الشمبلات» ( النعالات البلاستيك) وقد وزعوا علينا من واحد في طابور «الخساف» ومن أثنين في طابور «السوق الطويل» ومن ستة في طابور « القطيع» وحسب تفكيري وأنا رجل أمي ما أفهم في السياسة إن عدن لوحدها فيها ٣ حكومات أحسنها حكومة «القطيع» أم ستة «شنبلات»، وأنت احسب كم حكومة في باقي البلاد.. هذا هو الحال يا ابني..

ضحك الجاوي حتى اغرورقت عيناه بالدموع وهو يقول له: الآن حليت الفزورة اللي أكلت مخي يا والد.

وظل الجاوي بعدها يسألني دائماً: وين صاحب حكومة «القطيع» سلم لي عليه الله يرضى عليك.

## زواج الجاوي بثريا منقوش

أخيراً.. حصحص الحق، فقرر عمر الجاوي المدير العام للإذاعة والتلفزيون بعدن الزواج، وهو من مشاهير العزاب في المدينة، ولم أعلم إلا بعد ذلك بسنوات أنه كان متزوجاً من «روسية» في «موسكو» وأن له منها ابنة وحيدة .

أما «المحظوظة» فكانت «ثريا منقوش» وهي من هي في ذلك العصر والأوان.. خريجة جامعية، طول في عرض لدرجة أنها إذا ضبطت تسير بجانب الجاوي يبدوان مثل رقم «١٠»، وطبعاً هي الواحد، ولذلك فقد كان يتحاشى السير معها.

إضافة إلى ذلك، كانت شخصية هجومية كاسحة، وذات بأس وعنفوان شديدين، فقد كانت عضواً في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، تدربت في ميادين القتال وجابت بلاد الشام برجليها وعرفت الضبط والربط والتمرد أيضاً.

وكان لديها اهتمام كبير بالبروز الإعلامي فهي ضيفة دائمة في مختلف البرامج «تهبش» في رقبة هذا أو تضع أصابعها في عيني ذاك، وكانت إذا مر شهر ولم أستضفها في برنامجي التلفزيوني المفتوح «فنجان شاي» تتصل بي مؤنبة ومقرعة وكأن ذلك حق من حقوقها التي لا تغض الطرف عنها.

المهم أن الأخت «ثريا» قضية ما تحملها ملف كما يقول شاعرنا المحضار، وحتى لا أنسى، أشير إلى أنها كانت موجودة في بيروت أثناء الغزو الإسرائيلي فقصف الطيران الإسرائيلي المبنى الذي كانت فيه وكانت هي الوحيدة التي خرجت سالمة من بين الأنقاض، وأثناء إسعافها على النقالة جرى قصف آخر فقتل المسعفون وسلمت هي، إلا أنها على ما يبدو - والله أعلم - أصيبت بارتجاج في المخ من نوع ما، لأنها منذ ذلك الحادث تدعى أنها تتلقى وحياً واشارات وعلى كل حال فتلك قصة أخرى.

سألت الجاوي عن الأسباب وراء هذا القرار الخطير ..فقال لي: ما أنت شايف الوضع، يوم عند عمنا عبد الكافي طباخ «الكريسنت هوتيل» ندخل مثل اللصوص ونخرج شم الأنوف، ويوم عند الحاج عبدالوهاب ونائبه عبد العزيز في مطعم الشموع بخور مكسر نشارك عمال المطعم غداءهم، ويوم في بيت صالح الدحان لما طفشت منا زوجته «سعادة» ويوم نضرب مشواراً إلى « الوهط» في لحج يمكن نحصل عند أخواتي كسرة خبز وقليل قهوة، المهم يا سيدي الزواج ستر: لقمة وهدمة، وثريا كفوة وبنت ناس وكما ترى مقاتلة من الطراز الأول .

قل يا سيدي كلفني «العم عمر» بمهمة «الخطوبة» وقمت بذلك على ما يرام وتمت الخطوبة بدون قيد أو شرط، لأنه لا يتصور وجود من يشترط على «الجاوي» وقد عجز عن ذلك الوزراء والزعماء والرؤساء، وكانت المشكلة لاتمام الزواج أن شقة الجاوي احتلها رفيق دربه القادم من الشمال آنذاك «عبدالله الصيقل» ولا يمكن للجاوي تحت أي ظرف من الظروف أن يطلب من صديقه إخلاء الشقة ولو

كان في الأمر « قطع رقبة» فهكذا هو عمر الجاوي ولا يطلب مني أحد تفسيراً لذلك، وقد كانت «ثريا» تتلمظ مثل النمرة على الشقة ولكن هيهات، وكانت حذرة إلى حد ما لأنها لم تسبر بما فيه الكفاية أغوار الجاوي، ومهاويه السحيقة.. أما كيف الزواج ذلك ما سنفصله غداً.

## الأخ ثريان

عطفاً على زاوية الأمس حول قرار «عمر الجاوي» بالزواج واختياره للأخت «ثريا منقوش» شريكة حياة، والتي نسينا أن نقول أنها كانت تعمل آنذاك مدرسة في الثانوية، وفي الوقت نفسه تكتب للصحف وتعمل على التأليف وتخوض فيما يخوض فيه سائر البشر المسيسون في تلك الحقبة الاستثنائية.

تدبرت أمر شقة مؤقتة تعود لصديق يعمل في السلك الدبلوماسي وتقع في شارع «المعلا» الرئيسي، وقد تم الزفاف بلا حفل ولا مدعوين، فبعد العقد هرعنا أنا وعمر إلى سيارة العروس التي أخذت تسير بها الهوينى وتوقفت أمام مطعم في شارع «الزعفران» بكريتر حيث بيت أهلها فاشترت دجاجة مشوية من حر مالها لزوم العشاء مع بعض المشروبات الباردة.

وكان الجاوي قد مناني الأماني بأن موائد «المن والسلوى» ستكون إحدى نتائج هذا الزواج المبارك وأن أيام الصعلكة قد ولت إلى غير رجعة.. وهل أجمل يابن النقيب- من أن تفتح عينيك على القهوة الساخنة يليها الفطور المعتنى به، ثم تجد ملابسك مكوية وما عليك إلا أن تلبسها لتذهب إلى العمل نشيطاً مبتهجاً، وللأسف

الشديد، فإن أحلام عمر الجاوي الإنسانية البسيطة قد ذهبت أدراج الرياح وأصبحت أثراً بعد عين.

ذهبنا إلى العمارة الشاهقة وكانت الشقة في الطابق السادس والمصعد لا يعمل شأن سائر عمارات ذلك الشارع الذي كان مفخرة المدينة، كما أن خدمات إضاءة السلالم وجمع القمامة قد توقفت وفقاً لسياسة «أنا أمير وأنت أمير فمن يسوق الحمير».

وهكذا أخذنا ثلاثتنا نخوض في بحر من الظلام والحفر والنتوءات وكانت ثريا تتقدمنا بعنفوان مقاتلة في ليلة عرسها فكانت تسحب الجاوي وهو يسحبني حتى أدمتنا فصرخ الجاوي من قلبه: «يا أخ ثريا.. شوية.. شوية.. مش هكذا يسحبون حمران العيون» ردت ثريا بغضب: «أخ.. بدينا يابن الجاوي.. قال: أيوه.. وعادنا باأذبح «البسة» كمان.. أيش فاكره الدنيا سايبة».

أعطيت الشنطة للجاوي ونزلت أتسحب في الظلام الدامس، فقد خفت أن تشتعل الحرب وأعلق فيها.

بعد ثلاثة أيام جاءتنا «ثريا» للإدارة العامة للإذاعة والتلفزيون وكنا نتحدث في العمل فخاضت في الحديث كعادتها فصرخ الجاوي: ياأخ ثريا با أقطع لسانك لو تدخلت في العمل، ومنذ ذلك اليوم أصبحت الأخت ثريا منقوش «الأخ ثريا» وعلى كل لسان وبقدر ما كانت تبرطم في البداية أصبحت تأخذ على خاطرها وتزعل إذا لم تقل لها يا «أخ» في المراحل اللاحقة.

اللطيف في الأمر أن الجاوي قال لي ذلك اليوم بعد أن هرش صلعته الشهيرة: اعمل لفة يابن النقيب «للكريسنت هوتيل» شوف

عمك عبد الكافي إذا كان يقدر يدبر لنا غذاء يسد جوعنا.. ظننت أن الأمر له علاقة بغضبه على ثريا.. ولكنه أضاف: وثريا معنا كمان.. قلت له: وأين المن والسلوى، واللقمة والهدمة؟.. قال: إنسى هذا كله.. الأخ ثريا لم يدخل في حياته المطبخ أبداً ولا ينوي أن يفعل ذلك، وهو يشتغل زعيم وبس.. وأنا زعيم.. وما أظن عدن تتسع لي ولها.

وصرنا منذ ذلك اليوم نتصعلك ثلاثتنا وغلبتنا «ثريا» بقدرتها على التجول الحر في مطابخ مضيفينا من عباد الله الغلبانين الذين دعوا عليها وعلى عمر وعلى الخاطب الذي وفق بين رأسين بالحلال.

## أوضاع قاتلة

شهدت السنوات الأولى من سبعينيات عدن عمليات الهروب الكبير للناس.. عشرات الآلاف يرمون بأنفسهم للتهلكة عبر الجبال الوعرة والصحراء المحرقة وبالتحايل على المنافذ البرية التي تتحكم فيها القوات المسلحة وكان السجن والتعزير والتشهير نصيب من يسقطون في فخاخ حراسات الحدود.

ولم تفكر الدولة أبداً في أسباب ودوافع ذلك النزيف وإنما اعتمدت سياسات انتقام جماعية حتى وصل الحال في بعض المناطق الريفية أن زوجة الهارب وأطفاله يقتادون إلى الحدود مع الشمال ويتركون لمصائرهم بحجة إلحاقهم بعائلهم لكي تسود الدنيا في عينيه فلا تستطيع الهجرة بحمله الثقيل.

ثم تنبهت الحكومة فجأة إلى أن بقاء العائلات هو أحد مصادر

العملة الصعبة فتشددت في عدم المغادرة إلا في حالات نادرة جداً وبضمانات من مقيمين إذا تخلف مضمونهم يودعون في السجون حتى عودته.

وقد انشغل الناس بهذا البلاء ونشأت تجارة رائجة لتهريب البشر مقابل مبالغ نقدية يجمعها أناس مفلسون، أو مقابل أشياء عينية كالبيوت والسيارات أو العفش وما إلى ذلك.

طفحت مدن الشمال بالهائمين على وجوههم القادمين من الجنوب وكتب الشاعر الكبير عبدالله البردوني قصيدته الشهيرة التي أصبحت علماً على المرحلة ومنها:

جنوبيون في صنعاء    شماليون في عدن
يمـانيـون في المنفى    ومنفيون في اليمن

أصبح الناس بدلاً من البكاء يضحكون على أنفسهم من أنفسهم ويتسامحون حتى مع من يضحك عليهم، وفي إحدى الصباحيات جاءني الفنان الكبير أحمد قاسم يسألني عن مفتاح شخصية «الجاوي» المدير العام للإذاعة والتلفزيون.. قلت له: ليش؟ قال لي: مالك دخل باتشوف بعدين.. قلت له: وحدوي حتى النخاع ومحب للتراث حتى الهوس، وكان «الحمنه» كما يسميه أهل عدن يريد صرف بعض الأجور التي عفى عليها الزمن.. ضبّط حاله- وهو بالمناسبة ممثل قدير وله فيلم فاشل (حبي في القاهرة) مع محمود المليجي وزيزي البدراوي - ولكنه في الحياة لا يعلى على تمثيله.. دخل على الجاوي وقال له: يا أستاذ عمر.. أنا أعمل منذ أشهر عديدة على «سمفونية» تستلهم لحن أغنية «وامغرد بوادي الدور».. (

أقدم أغنية تراثية يمنية) لتعكس عظمة اليمن الواحد وتجسد تراثه المشرق. أظهر الجاوي الفرح بهذا التحول العظيم عند «الحمنه» وأمر بصرف جميع الأجور، وعندما خرج قال لي: مسكين أحمد وضعه صعب، وهو يعتقد أني صدقته، أوضاع الناس باتقتلني يابن النقيب.

## مبكيات.. مضحكات

في مرحلة الهروب الكبير التي استمرت طوال عقد السبعينات في عدن هبط الناس الذين ظلوا في البلاد إلى العالم السفلي ونبتت على ألسنتهم لغة الرموز والإشارات والجمل البرقية التي يتم تداولها بين عدد محدود من الناس ثم لا تلبث أن تنتشر حيث تصبح هي المتنفس الوحيد في بلد يحكمه الخوف كأن ليلا هبط عليه ولم يغادر أبداً.

ولم يكن ذلك مقتصراً على فئة دون فئة فحتى الحكام تلبسهم الفزع الأعمى والدليل على ذلك السباق المحموم لتصفية كل خصم محتمل حتى وإن كان قابعاً في السجن مسلسلاً في الأصفاد، وقد روى لي الرئيس علي ناصر محمد أن المكتب السياسي للحزب الاشتراكي اليمني اجتمع بكامل هيئته ليناقش مسألة سجين سياسي أنهى محكوميته.. ماذا نفعل به؟ وقد تضاربت الآراء بشأن هذا الأمر « «الخطير» علماً أن المسكين كان يريد الخروج من البلاد بأي ثمن، وغاية حلمه أن يحصل على اذن بذلك. وليس ببعيد عن الذهن مقتل جميع شيوخ يافع المسجونين وبينهم السلطان الشهير الذي يعد من رموز الحركة الوطنية «محمد عيدروس العفيفي» وأخوه محمود في مهزلة رخيصة حيث تم اقتيادهم بحجة إيصالهم

إلى منطقتهم ثم جرى الإعلان بأن عصابة أجهزت عليهم جميعاً في منطقة «السيلة البيضاء» والغريب أن حراسهم وسجانيهم لم يصب منهم أحد ولو بخدش للتمويه وعادوا سالمين غانمين.

ولم يكن حظ شيوخ «خولان» وقبائل أخرى (من الشمال) أفضل من حظ سابقيهم مع فرق أن شيوخ الشمال حوالي (٤٠ شخصاً) ومنهم الشيخ الشهير علي بن ناجي الغادر كانوا ضيوفاً مكرمين معززين تمت دعوتهم واستضافتهم لإجراء مباحثات، وخلال وجبة الضيافة في خيمة كبيرة تم صب الجحيم عليهم في مذبحة غادرة لا مثيل لها إلا مذبحة المماليك على يد محمد علي باشا في مصر.

أما ما جرى للدبلوماسيين اليمنيين ذلك حديث تسير به الركبان فقد جرى استدعاؤهم من مختلف دول العالم لعقد مؤتمر لهم ثم أخذوهم في جولة في البلاد حتى لا «يتبرجزوا» وقد شحنوا في طائرة عسكرية جرى تلغيمها وتفجيرها في الجو ليتحولوا إلى أشلاء وما هم بعد ذلك أن تم اعتبارهم شهداء في «دراما» يعجز «هيتشكوك» عن إخراجها.

ومن طرائف تلك المرحلة أن الخبير البترولي المعروف إسماعيل سعيد نعمان الذي كان سفيراً آنذاك في واشنطن استضاف وزير الخارجية الذي ذهب لإلقاء كلمة في نيويورك أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة فلاحظ الوزير أن سفيره يقطع «الصمون» بسكين كهربائي فلما عاد روى ذلك في اجتماع حزبي عال كنموذج للسلوك البورجوازي فتقرر استدعاء إسماعيل للتحقيق معه بشأن هذه «المخالفة العظمى» مع العلم أن تذكرة العودة تشتري ألف

سكين كهربائي وقد اشتم المسكين الطبخة فنفذ بجلده هارباً إلى أقرب منفى.. وبيدي لا بيد عمرو.. وبذلك نجا من المجزرة اللاحقة..

تحولت البلاد إلى متاهة تستعصي على أي فهم حتى أن الشاعر الشعبي الكبير «الخدش» أخذ يضرب كفاً على كف وهو يقول:

| | |
|---|---|
| يالإخوان قلتوا راح وقتَ المستبد | وبايجينا وقت راقي بايرقينا |
| خرجنا من نكد وأنه تلقانا نكد | دايم يلاقينا النكد من حيث ما جينا |

## الدحان والنعمان

من الأرواح المعذبة في متاهة سبعينات عدن شيخ الصحافة اليمنية صالح الدحان، الذي حاولت مراراً رسم صورته بالكلمات، ولكنه دائماً يروغ من بين يدي كما يروغ الزئبق، وأشهد أن لا أحد قاوم الموت حتى تخاله استعصى عليه كما فعل شيخنا الدحان، وقاومه بحب الحياة كأنما هو «زوربا» اليوناني في رائعة «كازنزاكيس» و«أنتوني كوين» قاومه بالسخرية المرة وقد رويت لقراء هذه الزاوية بدائع من تخريجاته ذات يوم، وسأروي لاحقاً ما يحضرني هذا اليوم، قاوم الموت أيضاً بالكلمات واللعب عليها كأي موسيقى خبير بالأوتار يدوزنها وهو مغمض العينين، وقاوم الموت بالأسفار حتى وصل إلى «بكين» في الصين أيام الثورة الثقافية العظمى وماوتسي تونج، ليس سائحاً ولا موفداً، وإنما معلماً، يعلم الصينيين أصول الترجمة إلى الإنجليزية وكان مزاملاً للروائي الكبير حنا مينا وقد شهدت ذات يوم لقائهما في بغداد واستعادتهما لذكريات المرحلة الصينية.

وبعد الحرب اليمنية الأولى التي أعقبت مجزرة شيوخ الشمال التي أشرت إليها في زاوية الأمس رافقت شيخنا صالح الدحان كصحافيين ضمن أول وفد ذهب إلى صنعاء من عدن، وكان برئاسة عبدالله الخامري وبحضور وزيري خارجيتي الجزائر وليبيا، وعلى إثر انتهاء تلك المباحثات التي لم تسفر عن شئ ملموس لأن المسألة كما يقول أخواننا اللبنانيون ليست «رمانة وإنما قلوب مليانة» وبعد أن تقرر فتح مكتبين في كل من صنعاء وعدن، رأى الخامري أن لا أحد أصلح من صالح الدحان لتمثيل عدن، وكان قد قدر أنه أصاب عصفورين بحجر واحد، فقد ارتاح من لسان صالح وأسند إليه عملاً يمكن أن يفجر مواهبه الكثيرة المكبوتة.. ولكن.. تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

ذلك أنه في أحد الاجتماعات اللاحقة وبحضور الوزيرين العربيين طلب صالح الدحان الإذن في الحديث فتوجه إلى وزير خارجية ليبيا قائلاً: هل تصدق هذا الكذاب، مشيراً إلى صاحبه الخامري، انه لا يريد وحدة ولا يحزنون، ثم استدار إلى الجانب الآخر: وهذا الكذاب أيضاً مشيراً إلى عبدالله حمران وزير الوحدة في شمال الوطن آنذاك، وبينما بهت الجميع واصل شيخنا قائلاً للوزير الليبي: يا أخي العزيز أصرف لي ٦ ملايين دولار وأنا أعمل لك انقلابين وأوحد هذا البلد المنكوب، وخرج وهو يصرخ: بطلوا كذب على دقون الناس.

وقد تعرفت عبر صالح الدحان آنذاك على محمد أحمد نعمان الذي كان وزيراً للخارجية ولم أر صالح ينجذب إلى أحد كما كان ينجذب إلى «الغوبة» كما يسمي صديقه النعمان ومعناها العاصفة

الترابية التي تسد الأفق وكان محمد كذلك فعلاً بحيويته وطاقته الهائلة على الحوار وقد اغتيل لاحقاً في بيروت وعندما نعي إلى والده الزعيم الحكيم أحمد محمد نعمان قال: أما محمد فقد ذهب إلى ربه. إن خوفي الحقيقي أن يتم اغتيال بيروت.. وقد كان.. أما غسان تويني فقد جعل ما نشيت جريدة النهار: مات رجل الحوار..

## الأيام السبعة المجيدة

هل أحدثكم عن الأيام السبعة «المجيدة»؟ لقد كانت «أتعس» أيام مرت على مدينة عدن، تستطيع أن تقول أن العاصمة خلال تلك الأيام قد طحنت وخبزت وأكلت في دورة حياة أو موت كاملة، فالأمر سيان حيث لم يعد هناك من فرق.

أخذت تتدفق على المدينة على مدار ٢٤ ساعة جماهير غاضبة من الأرياف (على ايش غاضبة.. ما تدري؟) يحملون الفؤوس والهراوات والسكاكين والبنادق ينظمون مسيرات حاشدة هادرة ويرددون شعارات «ثورية» تنادى بـ« تخفيض الرواتب واجب» و«تحرير المرأة واجب» و «تقطيع الشياذر(العبايات) واجب» ولكن التركيز كان على تخفيض الرواتب، لأن ذلك هو السكين التي ستحز رقبة المدينة التي ليس لدى أهلها أي مصدر للدخل سوى الرواتب، فمن المعروف أن «عدن» أرض بركانية قاحلة لا زرع فيها ولا ضرع، وأنها أقل نقطة في قارة أسيا بأسرها تسقط فيها الأمطار.

وبين عشية وضحاها جرى اعتقال حوالي خمسة آلاف موظف بصورة غير قانونية ومن قبل المتظاهرين أنفسهم، ولكن الجهات التي كانت تستقبلهم وتعيد تأديبهم وفق «النهج الجديد» كانت جهات

منظمة، وقد أصيبت العائلات برعب لا مثيل له لأنها لم تكن تدري ما مصير المعتقلين المخطوفين هل أصبحوا طعماً للأسماك أم أنهم ما زالوا أحياء يرزقون.

طبعاً توقف الإنتاج الزراعي في المحافظات المتاخمة للعاصمة فقد كانت الجرارات ومعها جميع وسائل النقل تحرث مدينة عدن، وكان نصيبنا في الإذاعة غارة مجلجلة بقيادة «شاعر الجياع» علي مهدي الشنواح، وكان أول ما لفت نظرهم التكييف المركزي وكان الجو في الخارج «جهنم الحمراء» فقرر الشنواح أن هذه «برجوازية» لا مثيل لها فتم إغلاق التبريد، مما ألهب الأجهزة فتوقف الإرسال بعد دقائق فانقطعت عدن عن العالم وفهم كثيرون أن التبريد إذا لم يكن ضرورياً للبشر فأنه ضروري لبعض الآلات.

في تلك الأيام «المجيدة» اختفت السلطات التي كنا نعرفها أو أنها هبطت تحت الأرض بانتظار انتهاء العاصفة المدمرة، ولم تظهر إلا بعد حين وقد حزمت أمرها في فإنه لا يفل الحديد إلا الحديد، وبذلك دخلت البلد في نفق مظلم جديد.

من طرائف تلك الأيام أنني ذهبت للغداء في مطعم «التحالف» الشهير فضبطت «شاعر الجياع» وأمامه بعض الخبز و«وصلة» لحم يأكل في زاوية مظلمة وما أن ناديته باسمه وأنا أقول له: هنيئاً مريئاً يابن الشنواح حتى أصيب بخوف وذعر شديدين فترك اللحم والخبز وخرج يهرول وهو يتضور جوعاً بكل تأكيد. لكم حزنت عليه، ولا أزال أشعر بالذنب إلى اليوم، لأن المسكين ربما ظن أنني سأكتب تقريراً عن هذه «البرجزة» قد يفقده لقبه الشهير ومصدر رزقه.

ولله في خلقة شؤون.

## شر البلية ما يضحك

تحدثت في زاوية الأمس عن الأيام السبعة «المجيدة» التي عاشت مدينة عدن أتعس ساعات عمرها في أحضانها الملتهبة، وقد أعقبت تلك الأيام التي كانت استعراضاً مثيراً للإرهاب «الشعبي» بتسليط جزء من الشعب على أجزاء أخرى تحت التهديد والوعد والوعيد، أعقبتها أيام وأشهر وسنوات عاصفة لم تلتقط أنفاسها «مؤقتاً» إلا عقب مقتل الرئيس اليمني الشمالي أحمد الغشمي في عملية جنوبية غادرة عبر حقيبة ديبلوماسية مفخخة حملها موفد رئاسي خاص.

ومن ثم تداعت الأحداث وتسارعت حتى أدت إلى إعدام الرئيس الجنوبي سالم ربيع علي، وهذه الأحداث تقع في منطقة «رمادية» من التاريخ ما زالت تنتظر الجلاء وكشف الوقائع التي لا يعلم إلا الله وحده إن كان قد تم دفنها مع جثث «الأبطال» أم أن هناك بعض الأحياء ستستيقظ ضمائرهم ذات يوم ليرووا لشعبهم جذور الآمه وخبايا مآسيه.

والطريف أن شعبنا الذي أخذ يضحك من المصائب التي كانت تتنزل على رأسه كل يوم والذي نسى الأكل والشرب والملابس إلا ما يقيم الأود ويستر العورة سرعان ما التقط إشارة أمل من نوع ما ترجمها في البداية أصحاب «التاكسي» الذي كان الواحد منهم ينادي على الركاب وسيارته خالية «باقي نفرين.. باقي نفرين» إشارة إلى ذهاب سالم ربيع وبقاء عبد الفتاح إسماعيل وعلي ناصر محمد، فيردد الجمهور معه النداء بفرح طفولي، حتى أصبحت النكتة على كل لسان، فلما أبعد عبد الفتاح إسماعيل إلى موسكو تغير النداء إلى: «باقي نفر.. باقي نفر».

وعلى ذكر الكساء والملابس روى لي الدكتور عيدروس صالح صادق أنه حين حصل على بعثته الدراسية كان عليه الحصول على أربع «ياردات» قماش بنطلونات إستحصال تحويل من مكتب وزير الدفاع تبعته سلسلة توقيعات أخذت من وقته عدة أيام لتصرف له تلك الأمتار «الثمينة» من مخازن الجيش.. والمفارقة لمن لا يعرف «عدن» أن هذه المدينة كانت مركز تموين عالمي لجزيرة العرب وشرق أفريقيا وأن أسواقها كانت تغص حد «التخمة» حتى أن جميع فواكه العالم كانت تباع في أسواقها على مدار العام دون أن يختفي أي صنف، وفيما بعد روى الأستاذ الشاعر محمد سعيد جرادة أنه قال لابنه منير: ارسم لي يا ولدي «تفاحة» فاندهش الفتى الصغير وهو يسأل والده.. وما شكل التفاحة يا أبي؟

وعودة إلى الأيام السبعة «المجيدة» وجذورها وفلسفتها فالشاهد أنها لم تكن شأناً محلياً خالصاً وإنما لها مصادر ملموسة ونصحاء معروفون، فقد ذهبنا نطلب الحكمة من «الصين» فعدنا بالضلالة؛ وذلك ما سوف نتكلم عنه غداً.

## حكمة الصين

كان أول اتصال مباشر بين عدن الثورة وصين ماوتسي تونج قد جرى قبل استقلال عدن عام ١٩٦٧ حين ذهب كل من علي سالم البيض وعبدالله الخامري إلى بكين سراً عن طريق تنزانيا وهناك قابلا «لين بياو» الذي نصحهما بتدمير كامل البنية والبناء اللذين سيخلفهما الإنجليز لأن في تلك البنية والبناء تكمن عوامل الردة و«بكتيريا» الثورة المضادة ووعدهما بأن الصين الشعبية ستساهم

بسخاء كبير في تشييد البنى الجديدة.

وطبعاً عاد «الرفيقان» البيض والخامري يبشران بـ "الثورة المستمرة» والتدمير الوشيك، ويبدو والله أعلم، أن تلك النصيحة «الثورية» قد كانت إلى جانب عوامل أخرى سيكشف عنها الزمن، وراء تغاضي المفاوض اليمني أو تنازله في محادثات الاستقلال التي جرت على عجل في الربع ساعة الأخيرة في «جنيف» عن التعهد البريطاني «المسبق» بتقديم ستين مليون جنية إسترليني على مدى ٥ سنوات هي ميزانية «مستعمرة عدن» السابقة.

وكان ذلك المبلغ «الضخم جداً آنذاك» كفيلاً بأن يوجد أرضية معقولة لانتقال هادئ للسلطة ولكنه حتماً سيكون مشروطاً بعوامل استقرار واستمرار من نوع ما، لم يكن وارداً قبولها في ظل عقلية «التدمير»، و«الثورة» المستمرة والحديث الرائج آنذاك من أن «عدن تصرف على لندن وقد قاد كل ذلك إلى إبطال دور عدن في التجارة الدولية وكانت ثالث ميناء في العالم ازدحاما بحركة السفن»،

كما أدى ذلك إلى اختناقات اقتصادية منذ اليوم الأول للاستقلال وصولاً إلى الأيام السبعة «المجيدة» التي جاءت بنصيحة صينية «أثقل» من نصيحة «لين بياو».

وتفصيل ذلك أن الرئيس سالم ربيع علي قام بزيارته الشهيرة إلى الصين حيث تباحث مع الرئيس «ماوتسي» تونج الذي أبدى استغرابه في توجه ربيع لبناء «مؤسسات ثورية» مشيراً إلى أن هذه المؤسسات ستعيق حركة «الثورة» وتحولها إلى «دولة» مشغولة بهموم الحياة اليومية، بينما الهدف المركزي هو الزحف لتحرير «الجزيرة

العربية» بكاملها، وحين يتم الوصول إلى النقطة الأخيرة ربما يكون الوقت قد حان لبناء المؤسسات.

المهم عاد الرئيس إلى البلاد وقد سبقه شعار: «سالمين نحو الجزيرة.. سالمين قود المسيرة»، وكان أن بدأت المسيرة بالاتجاه إلى عدن بدلاً من الاتجاه شرقاً حتى وقف ذلك الصحافي الأجنبي مشدوهاً وهو يرى الناس تطالب بـ «تخفيض الرواتب» وقال: إما أن هؤلاء مجانين أو أنني المجنون، ولم يدر أن الذين رفعوا الشعار كانوا بلا رواتب أصلاً وكثر الله خيرهم أنهم طالبوا بالتخفيض لا بالإلغاء.

وقد انتاب الناس الخوف والقنوط حتى أن الشاعر الجرادة سمانا «شعب ملك الزمان».. وما القصة؟ كان للملك فيل يخرج إلى الأسواق يعيث فيها فساداً فأجمع الناس على مخاطبة الملك بشأنه فلما وصلوا إلى بوابه القصر ترأسهم «جوقة ثوار» تصيح: الفيل.. فيردد الجمهور.. آذاناً،ظهر الملك على الشرفة فصاحت الجوقة: الفيل، فانتاب الجماهير الخوف فسكتوا.. وحين سأل الملك.. ما للفيل.. قالت الجوقة: يا مولانا، فيلكم الوديع الطيب يحتاج إلى فيلة تؤنسه، وقد قرر شعبكم الوفي شراء الفيلة وهو يستأذنكم في البدء بجمع التبرعات. فابتسم الملك وهو يقول بارك لله فيكم.. على بركة الله..

ويضيف الجرادة:«وهكذا بدل الفيل فيلين».. ثم يضحك ضحكته الشهيرة ويقفز إلى وسط «الديوان» وهو يصفق ويصيح «تخفيض الرواتب واجب».

## ثمار الأيام السبعة المجيدة

أثمرت الأيام السبعة المجيدة التي اجتاحت عدن في النصف الأول من سبعينات هذا القرن كريح صرصر عاتية نهجاً «نضالياً» جديداً كان من نتائجه: «الانتفاضات» و«لجان الرقابة» و«لجان الأحياء» و«المبادرات» وعسكرة الحياة.

أما الانتفاضات فجرت في جميع أنحاء البلاد بتحريض من الدولة وتحت إشراف مختلف الأجهزة الثورية لمصادرة الملكيات الخاصة دون قانون بحجة أن جماهير الكادحين استعادت حقوقها التاريخية.

و«لجان الرقابة» تم تنظيمها في مختلف دوائر العمل: من بسطاء العاملين للإشراف والمحاسبة وفرز قوى «الثورة المضادة» وكما ذكر لي أحد أعضاء المكتب السياسي فإن هدفها الأساسي كان إهانة الوزراء وكبار المسؤولين ومدراء العموم، وقد وضعت لجان الرقابة فعلاً فوق كل قانون أو نظام، وطالت كل رقبة وإن كانت بطول رقبة الجمل.

بالنسبة للجان الأحياء فتشرف على كل صغيرة وكبيرة في مناطق السكن لدرجة أنك لن تستطيع الحصول على «كيلو» من السكر لأسرتك إلا بموافقتها وبإذن منها وهي تراقب سلوكك السياسي والاجتماعي في منزلك وتقومه بجانب الحراسات الليلية للأحياء ومراقبة الزوار والاستفسار عنهم.

فيما يتعلق بالمبادرات فهي أعمال «تطوعية» ولكن إجبارية خارج أوقات العمل. كانت نوعاً من الشقاء والبلاء ولم تحصل منها

أي فائدة تذكر سوى إلهاء الناس عن أوضاعهم المتردية وإنهاكهم بما حولهم إلى أشباح.

و«العسكرة» كانت شكلاً من أشكال تطويع المدنين وكان المرء يشعر بالرثاء للنساء العاملات وهن بـ"الكاكي» يرزحن تحت الرشاشات في شمس عدن الكاوية كل صباح.

تفكك الجهاز المدني وأصبح القانون في ذمة التاريخ، ولا أنسى ليلة القبض على «فريد بركات» وهو من «عتاة» المثقفين لو صادفته لفررت من كلماته وقد ملئت رعباً لأنه كان يحمل ما بين خمسة إلى ستة كتب تحت إبطه الأيمن ومثلها تحت إبطه الأيسر، ويسير و«البايب» يتدلى من فمه يكز عليه بأسنانه، بينما كفاه مشغولتان بقبضة مفاتيح وملحقات «البايب» الذي لا أدري كيف كان يدبر له التبغ في تلك الأيام العمياء، وفريد- للعلم- وسيم قسيم ومحاور لا يشق له غبار، يكتب في الصحافة شاعراً وناثراً، وينظر في الإذاعة، وهو وجه تلفزيوني مقرر، لا ينافسه في كثرة الظهور سوى الأخ «ثريا منقوش».

أما لو ركبت معه سيارته «الفولكس واجن» التحفة، فإنك لا تدري كيف وأين تجلس من أكداس الكتب المتناثرة في كل مكان.

كان فريد يعاني من «الطوسان» وهو الذهول والنسيان بلهجة أهل عدن، وقد كلفته وزارة الإعلام مسؤولية الإشراف على مسرح ميداني بميدان التاكسي في عدن تؤدي عليه رقصات شعبية تحضيراً لمهرجان الشباب العالمي الذي كان مقرراً انعقاده آنذاك في برلين بألمانيا الديموقراطية، وكانت بلادنا قد انهمكت في ترتيبات واسعة

وصاخبة لهذا المهرجان، لا أبالغ أبداً إذا قلت أنها تشبه الاستعداد لحرب شاملة ماحقة لا تبقي ولا تذر.

المهم أن «الرفيق» فريد «طاس» ونسى إرسال الميكرفونات ومعدات الإضاءة للمسرح المذكور الذي كانت فرقة «سالمين» من المحافظة الرابعة (العوالق وشبوة) قد حضرت لتقديم برنامجها عليه، وحين تذكر فريد ذهب إلى هناك متأخراً استلمته الفرق وشحنته إلى معسكر «فتح» الشهير حيث نصبت له محاكمة ميدانية أصدرت عليه حكماً بالإعدام، وقد أجرى عبدالله باذيب مسؤوله الحزبي، بعد أن علم بالأمر من الفنان محمد عبده زيدي اتصالاً بالرئيس سالم ربيع الذي رد عليه بأنه لا يتدخل فيما يقرره «الشعب» وبعد أخذ وعطاء ووساطات طائلة طلب الرئيس من الفرقة تأجيل الإعدام حتى الصباح، وقد أطلق سراح فريد بعد أن كتب وصيته وفقد عشرة كيلوجرامات من وزنه، وكانت القصة رسالة واضحة لأصحاب الألسن والكلمات، وكان يمكن ببساطة أن تكون ممهورة بالدم.

## طوسان فريد بركات

إشارة على زاوية الأمس وما جرى لزميلنا «فريد بركات» من تهذيب وتأديب وتشذيب للوزن عقب أن كتب وصيته استعداداً للإعدام في معسكر «فتح» الشهير بسبب فعلته المشينة في نسيان الميكرفونات علماً بأن النسيان مغفور حتى في الدين الحنيف لأنه خارج إرادة الإنسان.

وقد اتضح بعد ذلك أن «فرقة سالمين» ذلك الخليط العجيب من الفنانين والقتلة كانت تستمتع بهذه الهواية الغريبة يومياً في المحافظة

الرابعة وأن ذلك الإجراء الذي أتخذ في العاصمة عدن لم يكن سوى تحصيل حاصل.

أنا من ناحيتي ظننت أن النسيان المشؤوم سيغادر فريد بركات إلى الأبد، ولكنني كنت واهماً، لأنه بعد حادثة معسكر «فتح» اتضح أن زميلي العزيز قد أدمن النسيان الذي يسميه أهل عدن «الطوسان» إدماناً تاماً، ويبدو لي الآن أن في ذلك الخير كل الخير أمام مآسي الحياة وظلم البشر وتقلبات الزمان.

وقد حاز فريد بركات عقب شيوع مأساته على تعاطف واسع ضمن قطاعات واسعة من الرأي العام الأمر الذي ثبت أقدامه وعزز من مكانته القيادية ضمن التحضيرات الهائلة لمهرجان الشباب العالمي المقرر انعقاده في برلين بألمانيا الديموقراطية آنذاك.

وقد أبلى فريد البلاء الحسن حتى أنه استلف على «ذمته» الحلي الفضية القديمة المودعة في «المتحف الوطني» ليجعل بناتنا يظهرن بمظهر مشرف بين فرق العالم المشاركة.

وكان أن ذهب إلى برلين وشارك بفاعلية إلا أنه أهمل استرجاع الفضة من البنات عقب انتهاء المهرجان ونسي الأمر تماماً.

وكان ما كان.. مرت أيام وليالي والمتحف يطالب بالعهدة بينما فريد حائر لأن الفتيات قد ذهبن بأرزاقهن إلى محافظات البلاد الست وليس لديه أي عنوان.

وهكذا تم إيقاف راتب الأستاذ فريد فكبرت المصيبة، حيث همس أحدهم في أذنه بأن المسألة قد تصل إلى المحاكمة إذا لم يبادر بالتصرف، وطبعاً لا تذكر الحزينة البكاء ولا تذكر فريد بركات فتح

وحبل المشنقة لأن الذي لدغته الحية يخاف من جرة الحبل.

ذهبت مع فريد إلى أبين لجمع ما تيسر ليمكن رفع الإيقاف عن الراتب ريثما نتدبر الباقي وكان أن وفقنا إلى لملمة كم قطعة بعد عناء ويوم من الشقاء الأغبر ثم عدنا إلى عدن وتوقفنا في المنصورة في مقيل «العم» محمد مبارك جارك محمد مرشد ناجي - الفنان الشهير- وفي اليوم الثاني اتصل بي محمد مبارك ليسألني إن كنت قد نسيت كيساً من الفضة، وعرفت ساعتها أن لا أمل يرجى في تخليص صديقي فريد بركات من " الطوسان» وإن معسكر «فتح» و«فرقة سالمين» لم يفعلا شيئاً سوى أن زادا الطين بلة.

## أركان حرب سالمين

كان أركان حرب الرئيس سالم ربيع علي في انقلابه المثير الذي دشنه بحزم وتصميم بالأيام السبعة «المجيدة» رجال «صماصيم» لهم « شنة ورنة» و«إقبال وإدبار» وأعمال وأفكار، ومن أولئك «فيصل العطاس» محافظ حضرموت آنذاك المشهور بـ « فيصل النعيري» وكانت أبرز إنجازاته تدمير البوابة التاريخية لمدينة «المكلا» عاصمة حضرموت، ونظراً لضخامة البوابة ومتانتها فإنه لم يمكن إنجاز التدمير إلا على مدى ثمانية أشهر من العمل الثوري المضني، ذلك أن سلاطين «القلعة» الذين بنوا البوابة قد حرصوا على أن تكون بمثابة قلعة عسكرية، لذلك فإنهم قد اختبروا متانتها عقب إنجازها بقصفها بالمدفعية وقد نجحت في الاختبار أيما نجاح ولكنها أخفقت في اختبار «النعيري» عندما تكاثر عليها الأعداء الذين اعتبروها من رموز «الماضي البغيض».

ومن الأركان «عوض الحامد» الذي حدثتكم عن منجزاته وخاصة لجهة نظم كتاب رأس المال شعراً على طريقة «ألفية بن مالك» التي حفظت لنا «النحو العربي» ويقع الخطأ على «محمود درويش» الذي لم يجزه عند زيارتنا له في مقر المحافظة بلحج وإلا لكان اليوم ينافس «أدونيس» الذي يعمل على ترشيح نفسه لجائزة «نوبل» الله يوفقه.

وثمة أيضاً محافظ المحافظة الرابعة «علي شايع» الذي تكشف عن موهبة شعرية في نظم الشعارات والأناشيد الجماهيرية، وقد زرناه في مبنى المحافظة أنا والمؤرخ سلطان ناجي والشاعر الجرادة وناصر الصبيحي والشاعر مسرور مبروك حيث حضرنا المهرجان الأول للشعر الشعبي وكنا خلال الرحلة الجوية بطائرة عسكرية قد تعرضنا لمطب جوي هائل صرخ من هوله المؤرخ سلطان دون وعي: فعلوها أولاد الـ.. فقد ترسب في وعيه الباطن حادث طائرة الدبلوماسيين التي نسفت في الجو، ولطالما أكلت وشربت وسعدت أيضاً على حساب ذلك الإنسان الطيب النبيل «سلطان ناجي» بحجة أنني سأفشي المضمون السياسي لصرخته وكان يقول لي دائماً: بطل يا أهبل.. عيب المزاح في هذه الأمور، منشان تضحك وتتسلى بايطير رأس عمك سلطان.

وكان الجرادة يحرضني أثناء «المقيل» وبيت سلطان ناجي المضياف مليء بالناس فيقول: على فكره «هاذاك» المطب يوجع لي قلبي من «ذاك» اليوم، أنت ما أثر عليك يا «فضل».

. يقول الكلمة الأخيرة وهو يغمز باتجاه «سلطان» فيحتدم سلطان وهو يعلق: (اللي يمشي وراء الدجاجة فين باتوديه غير

«المدج ")..  أي بيت الدجاج.

عودة إلى «المحافظ» علي شايع وكان من أركان حرب الرئيس سالم ربيع علي الذي ما أن علم بوجود «الجرادة» و«مسرور مبروك» حتى هش لنا وبش وأكرمنا غاية الإكرام، واتضح أنه كان يريد الإجازة الشعرية من الجرادة ومسرور مثلما أرادها «عوض الحامد» من محمود درويش.

لم يتردد الجرادة في إجازته، أما العم مسرور فقد كان يغط في شيخوخة عجيبة لا يتذكر منها إسم المحافظ ولو قلته له مئة مرة في الجلسة، وعلى الرغم من أن المحافظة في تلك الأيام العمياء، كانت قد ابتليت بوباء «السحل» بالسيارات وخاصة لرجال الدين والعهد البائد إلا أن «الجرادة» كان يهمس في أذني خلال العزومة الفاخرة: لا.. لا.. هذا مش وجه واحد «يقرط» رؤوس لازم في واحد ثاني.

## حمار الشطيري وعرس القاضي

سرعان ما اتضح فشل «الانتفاضات» و«المبادرات» على المستوى الاقتصادي، وأدى ذلك إلى تدهور المستوى المعيشي للناس في انحدار سريع أنذر بالوصول إلى قاع «الهاوية».

وكان الرئيس سالم ربيع علي قد سبق له أن تحدث في مجالس عديدة أنه سيجعل المنطقة الممتدة من «العرقوب» إلى «عدن» (حوالي ٢٠٠كم) « قطيفة خضراء» مشيراً إلى «الموكيت» الأخضر الذي عرفته البلاد للمرة الأولى آنذاك في مطالع السبعينات والذي كانت «الفرشة الأولى» منه من نصيب دار الرئاسة.

طبعاً- غابت عن ذهن الرئيس عوامل عديدة محبطة مثل عدم

توفر المياه وانعدام شبكات الري وزحف الرمال «التصحر» وغياب المعدات ونضوب التمويل «الرأسمالي» ونزيف الكوادر المؤهلة، وتحول الفلاحين عن الزراعة باتجاه المسيرات والطبل والزمر، ومحاربة «الأعداء الوهميين».

لم يقبل أحد الاعتراف بالفشل لأن «الثورة» لا تخطئ أبداً، وبدلاً من ذلك قيض الله للبلاد انقلاب «شيلي» على «سلفادور اللندي» فقامت القيامة في بلادنا التي لا أحد يعرف من سكانها موقع « شيلي» أو حتى في أية قارة تقع وهات «ياسب وياشتم» في الجنرال العميل «بينوشت» والامبريالية الأمريكية التي تقف وراءه ونسينا مسألة «الطماطة» و«البطاطة» إلى حين، أو حتى نفرغ من معركتنا مع «بينوشت» وعسكر شيلي.

وقد حمى الوطيس عقب أنواع الفشل المتكاثرة، على الثورة المضادة، ورموزها «العفنة» وأصبح كل شعار يرفع بمثابة ضربة قاضية للإمبريالية الأمريكية، وقد حدث آنذاك في منطقة «يافع» أن تم تمهيد عقبة تدعى «نقيل الخلا» بصورة بدائية لعبور السيارات فأقيمت احتفالات طنانة رنانة، وكان مما قاله الخطيب الثوري عميد الحفل: أن النجاح في «نقيل الخلا» ضربة قاضية للامبريالية ومسمار أكيد في نعش الرأسمالية، وبينما كان يسترسل منتشياً وقف له مواطن عجوز يتكئ على ظهر حماره الذي كان ينقل فوقه أغراض الناس في ذلك المكان فقال له: والله يا ابني إن الضربة موجهة لي ولحماري، أيش من امبريالية وأيش من «قاضية» يا قليل الناموس.

على ذكر الحمير، فإن مواطناً من بيت «الشطيري» حوكم بتهمة عدم الانتباه لحماره الذي قضم كم قضمة برسيم من إحدى الأطيان،

وقد شرح له القاضي «الثوري» بأنه عندما يقول سين سؤال فإن عليه أن ينصت، وعندما يقول جيم جواب فإن عليه أن يرد، فقال له المواطن: «يا إبني بلا سين سؤال بلا جيم جواب، هذا حمار «داشر» ينطلق على هواه دون عقل، وأنا مستعد أعطيكم «برسيم» مضاعف أو تحضروا حمار صاحب الطين، ويأكل من طيني بكيفه».

لم يقتنع القاضي وأخذ يسأله ويلح عليه لأن الغرض الحقيقي كان إيداع «الشطيري» السجن لأنه من شيوخ الماضي..

أخيراً ضاق «الشطيري» ذرعاً فقال للقاضي: يا أخي حماري «داشر» مثلك لما تركت ضيوف حفل عرسك، ورحت تعمل المخازي، وكان القاضي ضبط في موقف مشين معروف للجميع، لذلك فقد بهت وقال للكاتب أوقف التسجيل وأغلق المحضر فقال «الشطيري» لا.. سين سؤال، جيم جواب، فقال القاضي: خلاص براءة، اربط حمارك في المرات القادمة.

## المسطرة

ومن أقطاب مرحلة السبعينات في عدن التي شغلنا القراء بها للعبرة والذكرى لأنها أحداث ومواقف يمكن أن تمر بأي بلد عربي، رئيس لجان الرقابة «سلطان الدوش» الذي كان مقرباً من الرئيس سالم ربيع علي، وقد أنعش ذاكرتي به الزميل اسكندر إسماعيل أخو «عبد الملك إسماعيل» سفير اليمن في باكستان، الذي خابرني ليذكرني بقضية «المسطرة» التي شغلت العباد والبلاد.

ذلك أن أحد العاملين قد انكسرت منه أثناء نقل لوازم إحدى الإدارات إلى مبنى جديد مسطرة عادية من تلك التي يحملها تلاميذ

المدارس حتى أيامنا هذه ففتحت لجنة الرقابة في المرفق محضراً بذلك، ومن ثم لجنة للتحقيق والمساءلة لأن كسر المسطرة يمكن أن يكون عملاً من أعمال التخريب ضد الثورة، وهكذا أخذ الملف يتدحرج ويكبر مثل كرة الثلج حتى أصبح يهدد بالتحول من الكم إلى الكيف وفقاً للنظرية، وقد سعى الزميل إسكندر مع صاحبه عبده علي عبد الرحمن نائب وزير الخارجية عقب الوحدة لإغلاق هذا الملف الخطير الذي قد يفقد العامل بسببه وظيفته ومستحقاته وربما راح فيها «فطيس» فذهبا إلى رئيس اللجنة العليا للرقابة «سلطان الدوش» الذي أفتى بأن هذه القضية على درجة عالية من الخطورة ولا يمكنه الفصل فيها إذا لم تكتمل كل إجراءاتها وفق القوانين الثورية.

طبعاً ووفقاً للمنطق والمصلحة، فقد عرض العامل شراء عشر مساطر بدل المسطرة الواحدة إذا كانت متوفرة في السوق، ولكن هذا العرض جوبه بالرفض الحاسم، لأن المسألة ليست «مسطرة» وإنما ما وراء المسطرة.

وكان لابد أخيراً أن يصل الأمر إلى الرئيس سالم ربيع علي الذي أدرك بفطنته أن المسألة زادت على حدها وأن هذه البيروقراطية الثورية المرتعشة أمام مسطرة ستضر بالقضية، فقرر إقفال ملف المسطرة على مسؤوليته وقد تحدث عن الأمر في احتفال عيد العمال العالمي آنذاك فتنفس الناس الصعداء.

## محسن صالح وذكريات السجن

يتذكر «محسن صالح صادق» العشرين شهراً التي قضاها في

السجن بتهمة توزيع زكاة من أحد التجار المغتربين على فقراء منطقته ويقول: دخلنا إلى السجن تحت مظلة التهمة نفسها سبعة وثلاثين شخصاً وخرجنا ثلاثة عشر، أما الباقون فقد «لحسوهم».

وقد شاعت في «عدن» السبعينيات تعابير من نوع «لحس» و «صرف» بمعنى «الله يرحمه» لا تسأل عنه لكي لا تلحس.

وترددت آنذاك «نكتة» حول وزير الدفاع «علي عنتر» الذي كان مركز جذب للنكات بشخصيته المرحة وتعليقاته اللاذعة على البديهة وصدره الرحب حتى أنه كان يسأل عن آخر نكتة عن «علي عنتر» بنفسه، ولم أر علي ناصر محمد نادماً على خلاف مع أحد مثل ندمه على مأساة الخلاف مع علي عنتر.

أما النكتة التي تعبر ضمناً عن تعدد الأجهزة التي كانت تقوم بعمليات الاختطافات وتوابعها فتقول أن علي عنتر طلب من جماعته لأمر ما لا يعلمونه إن يحتفظوا بأحد الأشخاص في «الحسوه» بكسر الحاء وتسكين السين فلما رأوا كلمة «الحسوه» بين قوسين أخذوا في تحليل اللغز واتفقوا على أن الكلمة «إلحسوه» بتسكين اللام وفتح الحاء، فلحسوا المسكين ولم يعثر له على أثر بعد ذلك.

يواصل محسن صالح صادق عملية التذكر القاسية فيشير إلى فلان الذي كان أنفه مثل أنف النسر وفلان الذي كان يزمجر مثل الأسد وأشعر أنا أن «محسن» يعاني من شعور بالذنب لأن أصحابه ماتوا وخرج هو والإثنا عشر الآخرون أحياء، ولا أعتقد أن له ذنباً في ذلك فقد عانى مثل ما عانوا ومات مئات المرات بعدد الأيام التي قضاها في السجن.

الغريب أن «محسن» ليس من القوى المضادة وإنما كان من «عظام الرقبة» لذلك يفيق فجأة من بئر الذكريات ليقول لي: أغرب شيء يا أخي هو أنني عندما عينت مأموراً لمديرية «يافع» وجدت في أحد الملفات بالصدفة محضر اجتماع حزبي سمى حوالي خمسة عشر مسؤولاً من المديرية ينبغي أن تتم تصفيتهم لأنه من المحتمل أن يصبحوا أو يتحولوا إلى أعداء في مرحلة قادمة وكان اسمي بينهم.

كان ذلك أحدث أنواع التصفيات وفقاً لتوقعات مستقبلية مما يذكر بالنكتة السوفيتية الشهيرة حول محاكمة رجل بتهمة «التفكير» لأنه ضبط منعزلاً وواجماً ينظر إلى الأفق البعيد.

## مهمة وزارة الثقافة

كان أحد القادة الكبار في عدن السبعينات يتلذذ بترداد مقوله منسوبة إلى أحد الطغاة العالميين يقول فيها أنه عندما يستمع إلى مثقف يتحدث فأنه يتحسس مسدسه، ودلالة هذا القول واضحة جداً كمؤشر للتعامل مع هذه الفئة الضالة.

ولست أجد مثالاً بليغاً للتعبير عن هذه المقولة على أرض الواقع من الإشارة إلى أنه في أعقاب السبعة الأيام «المجيدة» تقرر إنشاء وزارة للثقافة بعيداً عن الإعلام لكي تضم جميع «المترهلين» وكنت قد تركت الإذاعة عقب الغارة الشعواء التي شنها عليها المنددون بالبرجوازية بقيادة شاعر الجياع علي مهدي الشنواح.

ومن ثم فقد انضممت بدوري إلى هذه الوزارة الجديدة التي كان وزيرها عبدالله عبد الرزاق باذيب بأدبه الجم ومزاجه الثقافي وحدبه على المنكسرين المذلين المهانين، وقد حوت الوزارة مشاهير النجوم

مثل الفنان الكبير محمد مرشد ناجي وزميله أحمد قاسم وصاحب أشجن الأصوات وأكثرها امتلاء بالحنين الفنان محمد عبده زيدي إضافة إلى فريد بركات وسعيد أحمد الجناحي والموسيقار جميل غانم وكوكبة من المواهب التي أصبح لا شغل لديها ولا عمل غير محاولة تأسيس صرح حضاري على أساس من الرمال المتحركة.

كان الشيء الأجمل الذي خرجنا به من تلك الطبخة المدبرة هو ذلك المبنى الأبيض الجميل الواقع على الزاوية البحرية بين فندق «الهلال» الشهير وعمارة «البينو» الجميلة حيث كنت أعمل، وكان المرحوم محمد ناصر محمد ألمع الإعلاميين آنذاك قد أسس في المبنى وكالة أنباء عدن قبل أن يصبح سفيراً في بيروت ويقضي في حادث تفجير طائرة الدبلوماسيين، وقد سعدنا من مكاتبنا المطلة على البحر بالحوار مع الأمواج ومراقبة الأفق البعيد حيث تمرق البواخر في المياه الدولية والتي ما عادت تزور ميناء عاصمتنا الإستراتيجي.

وقد نما إلى علمنا أن «جهازاً» متنفذاً في الدولة قد راق له ذلك المبنى الجميل وإنه يضغط للحصول عليه، ولم نأخذ الإشاعة على محمل الجد حتى جاء ذلك الصباح المشؤوم الذي أكد مقولة القائد الكبير، فقد ذهبنا إلى الوزارة لنجدها مغلقة بالسلاسل والأقفال أما مكاتبنا وملفاتنا ودوالبينا وجميع متعلقاتنا من الوزير إلى الغفير فقد كانت مرمية في ملعب كرة القدم بالتواهي نهباً للغربان التي كانت تتلهى للبحث عن أي شئ بين الأنقاض وهكذا تم ترحيلنا إلى مبنى كئيب في أعماق المدينة المظلمة.

## الوطن- الصيانة والإهانة

حدثني أحد أعضاء المكتب السياسي للحزب الاشتراكي اليمني بأنه ذهب في سنوات عدن السبعينيات العجاف يشتكي للرئيس شحة التبرعات من قبل بعض الذين صنفوا كتجار آنذاك لمشروع طريق ريني، فقال له الرئيس: ألبسوهم ثوباً غير ثوبهم... فلما استوضحه أكثر قال: اتهموهم بالعمالة والخيانة وسترون كيف يأتون راكعين يعرضون أموالهم بينما أنتم تتعززون.

ويضيف محدثي: أيقنت منذ تلك اللحظة أننا فقدنا الاتجاه وأننا نسير في نفق مظلم مخيف، وكان «علي شيخ عمر» الذي كان في تلك الفترة مديراً للأمن العام قد ذكر في إحدى الجلسات أن الرئيس طلب منه أن يجد لنفسه حلاً في قضية المسجونين لأنه (أي الرئيس) ليس مستعداً أن يصرف من أموال الكادحين لإطعام وإيواء عناصر الثورة المضادة.

يقول «علي شيخ»: شعرت أنه صفعني على وجهي، وأنني وقعت في مأزق، فقلت له: أنا لا أستطيع اتخاذ قرار بتصفية أي مسجون وأنا أفهم إننا دولة ولدينا قضاء ومحاكم، فرد عليه الرئيس بالقول: أنا ما يهمني كل هذا... عليك أن تتصرف.

ويبدو لي أن هذا الموقف وأشباهه هو الذي دفع علي شيخ عمر وكثيرين من مسؤولي تلك الفترة إلى مغادرة البلاد وتفضيل المنفى على الوطن، لأنه لا معنى لأن تكسب الدنيا وتخسر نفسك.

وفي تلك الفترة واجه الرئيس سالم ربيع علي موقفاً مأساوياً على المستوى العائلي فقد أمر بتصفية واحد من آل الجفري كان

يسكن في أبين وكان الرجل في غاية الحذر والحيطة يبيت في أماكن مختلفة لأنه متوجس ويستشعر الخطر، وصادف أن شخصاً آخر يحمل الاسم نفسه يعمل في الإصلاح الزراعي في لحج ولكنه يسكن في أبين أيضاً وقد وقع لسوء حظه في ايدي المكلفين بتصفية الجفري الأول ولم يكونوا يعرفوه واختطفوه وقتلوه ثم اتضح لاحقاً أنه ابن خالة الرئيس، وكانت مناحة مأساوية في بيت العائلة مصداقاً للأثر: من حفر لأخيه حفرة وقع فيها.

لقد أصبح حالنا في تلك الأيام ينطبق على قول الشاعر:

رب يوم بكيت منه فلما　　　صرت في غيره بكيت عليه

فلم يكن ينقصنا من هم جديد سوى قانون «صيانة الوطن» الذي ينص على عدم الجلوس أوالحديث أوالاتصال التليفوني مع أي أجنبي تحت طائلة المحاكمة والسجن والملاحقة، حتى أن الطالب ممنوع من الحديث مع معلمه العربي خارج الفصل، وقد جندت عشرات الفرق لمراقبة الناس في الشوارع وقد عبر ذلك القانون السيئ الصيت عن عدم ثقة السلطة بنفسها وبشعبها وبمن تستقدمهم بنفسها من الأجانب والعرب وبذلك كان القانون حقاً وصدقاً «إهانة للوطن» وليس صيانة له.

## اعتقال طرموم

في صبيحة أحد أيام أوائل سبعينات عدن اتصل بي عمر الجاوي تليفونياً طالباً مني أن نذهب سوية إلى وزارة الداخلية ...خير إن شاء الله؟ نجري محاولة للإفراج عن أستاذك عمر سالم طرموم المسجون من دون ذنب، وما الطريقة؟ في ذهني صفقة ستطلع عليها في وقتها.

ذهبنا وقابلنا محمد صالح مطيع وزير الداخلية آنذاك ووكيل الوزارة عبد العزيز عبد الولي الذي كان أحد تلاميذ طرموم في المعهد العلمي الإسلامي بعدن وكان الاثنان أقرب إلى التفهم والتفاهم بل وربما التعاطف. وقد انتهى «مطيع» مقتولاً بتهم لم يظهر عليها أي دليل حتى اللحظة، والثاني عبد العزيز يقال أنه انتهى مغدوراً بعد نفيه إلى إحدى الدول الاشتراكية وكان أحد نجوم الحياة الاجتماعية في عدن، وقد قص علي عدد من الفنانين منهم أحمد فتحي وسالم بامدهف قصصاً كثيرة عن تعاطفه معهم في تلك الأيام التي كان شعارها: أنا ومن بعدي الطوفان.

المهم أن «الجاوي» دبج مرافعة بليغة حول وطنية عمر سالم طرموم الذي بنى سجن «لحج» حجراً حجرا على ظهره كعقوبة له لمجاهرته بالحق في حضرة السلطان، فكيف لمثل هذا الرجل أن يسجن في عهد الثورة الموجهة ضد أعدائه، وكانت الشبهة هي أن للرجل صلات بتنظيمات إسلامية، ولم تكن مثل هذه التنظيمات قد بلغت ما بلغته اليوم.

أما الصفقة التي وافق عليها الوزير والوكيل حفظاً لماء الوجه فتقضي بأن يقوم عمر طرموم بكتابة تاريخ الحركة الوطنية وأن يلزم بيته لا يزور ولا يزار، وفعلاً تم الإفراج عنه، حيث دبر أمره بعد ذلك وغادر إلى الحديدة في الشمال.

لقد كان عمر سالم طرموم محظوظاً لأنه شخصية معروفة، فقد شهدت في أحد تلك الأيام إحدى المحاكمات «النادرة» لمزارع بسيط من أبناء القبائل الشمالية، ولم تكن هناك أية قضية ضده سوى أنه وقع تحت الاشتباه ولم يكن يعرف لنفسه هدفاً، وحين سئل في

المحكمة ما الذي جاء بك إلى عدن أجاب ببساطة: بلادي وجيت أشوفها ..هكذا صنفت وجيت... ومن سؤال إلى سؤال حتى سأله القاضي فيما إذا كان قد شارك في الحرب الأهلية في الشمال التي دارت بين عامي ١٩٦٢ و١٩٧٠ فأجاب بالإيجاب، فقال له مع أي جانب، قال: والله أنا مع قبيلتي مرة مع الملكيين ومرة مع الجمهوريين حسب التساهيل، قال القاضي: خلينا من المرة حق الجمهوريين، وركز معي على مشاركتك مع الملكيين لإن معنى ذلك إنك مرتزق ضد الوطن . قال القبيلي: والله يا أخي الكل كان يقاتل الكل وقد اتفقنا وتسامحنا وأنا الآن على باب الله أدور على رزق لعيالي، قال القاضي وهو يضحك: أنت مش على باب الله يا «قبيلي».. الله جابك إلى باب الثورة.

ظننت أن الرجل سيخرج «براءة» لا محالة، فإذا بالمحكمة بعد التداول تصدر حكماً بالإعدام.

وللمقارنة فقد حوكم أحد رجال القبائل في الشمال بتهمة التحريض على إسقاط الوضع فلما استوضحه القاضي اعترف بما نسب إليه ولكنه استدرك بأن ذلك «كلام قات» وكلام القات في اليمن لا يودي ولا يجيب وكان القاضي حصيفاً فأفرج عنه مع تنبيهه من مخاطر كلام القات وفلتان اللسان ولو وقع في يد قاضينا لكان قد أصبح في خبر كان .

## دهشة المحضار

الشاعر الغنائي الكبير حسين أبوبكر المحضار الذي ملأت شهرته جزيرة العرب على امتداد نصف قرن من الزمن على علو مقامه

وطول باعه وعراقة محتده إلى جانب كونه عضو مجلس الشعب الأعلى الذي يفترض نظرياً أنه السلطة التشريعية الأعلى في يمن السبعينيات الجنوبي وإن كان من الناحية العملية مجرد ديكور وكانت العضوية فيه أقل من شرفية، هذا الشاعر مُنع من السفر إلى الأراضي المقدسة إلا إذا أحضر كفيلاً يكفله.

وقد أدرك بحسه المرهف فجائعية الوضع فمعنى ذلك أن النظام فوق الوطن وأن المواطنة ليست انتماء بالحق الإلهي والإنساني، وإنما هي إذعان وعبودية عبر الصكوك والنصوص بينما الانتماء إلى الوطن بديهة غريزية ومن يشك في انتمائك لوطنك كمن يشك في أبوتك لأطفالك.

كان رد فعل المحضار دهشة الشعر المستنكرة وبصيرة الشاعر الكاشفة:

قلبي في «القطن» ساكن

له نخل فيها وطين

كيف تنكرون المواطن

كلا لقاله ضمين

ونا بدور ضمين

إن كان أحصل ضمين

ولا با أخرج مع الضاعنين

الحب تحت المطاحن

بايطحنونه طحين

بايبان ساعة عجينه

منخول وإلا مطحن هو وطينه

الناس مستأمنة

تحتاج أيدي أمينة

كلا لقاله ضمين

ونا بدور ضمين

إن كان أحصل ضمين

ولا با أخرج مع الضاعنين.

و«القطن» بفتح القاف وتسكين الطاء هي مدينة الشاعر أما «الضاعنين» فهي إشارة إلى جيوش الهاربين كل يوم.

كنا كلما خرجنا من حفرة وقعنا في بير وقد بلغ الاستقطاب بين الاتحاد السوفيتي ومنظومته الاشتراكية من جهة والصين ومن يدور في فلكها من جهة أخرى حداً حول وطننا الصغير وشعبنا الفقير إلى محمية للأفيال، أجاركم الله من وطأة مداسات تلك الكائنات الضخمة عندما تتقاتل بالوكالة وعلى أرض غير أرضها وأجاركم الله من السعار الذي يصيب الوكلاء المحليين الذين لا يعودون يفرقون بين مصلحتهم ومصلحة غيرهم، وقد استطاع السوفييت بحرفية عالية جداً زرع قواهم في كل مرفق وخاصة في الأجهزة العصبية كأنما خلقوا أوركسترا متناغمة من ألمانيا الديموقراطية وكوبا وبلغاريا والمجر وغيرها بينما اندفع الصينيون في هجمة كاسحة تأبى التراجع على طريقتهم في الحرب الكورية ولا تصدقوا أحداً من جماعتنا، إن قال أنه فكر وقدر وأعذر وأنذر فقد كان كل فريق يمشي

على صراط مستقيم لو حاد عنه قيد شعرة لسقط في الهاوية، وما أكثر الذين سقطوا لأنهم لم يفهموا أو لأنهم حاولوا أن يفهموا. الأمر سيان.

## الاشتراكية اليمنية

سأل المحاضر السوفييتي مستمعيه من الكوادر الحزبية العليا في الحزب الاشتراكي اليمني: هل بريطانيا أقرب إلى الاشتراكية أم اليمن الديموقراطية؟ فأجاب أغلبهم: اليمن الديموقراطية. عقب على ردهم بالقول: إذاً فأنتم تفهمون الماركسية أكثر من ماركس، الذي تنبأ وفقاً لمعطيات نظريته بأن بريطانيا أو ألمانيا هما الأكثر أهلية بسبب تقدمهما الصناعي وسعة الطبقة العاملة فيهما وقوة تنظيماتهما النقابية، وذلك قبل أن ينظر «لينين» لإمكانية إحداث التحول في بلد متخلف ولكن ذو إمكانيات غير محدودة مثل الاتحاد السوفيتي، والذي تأكد بعد تجربة ٧٠ عاماً أن الجمود العقائدي ومصادرة التفكير الخلاق إضافة إلى انعدام الديموقراطية قد نخرت جميعها بنية التجربة حتى استيقظت البشرية على انهيار ذلك الصرح العملاق في مطلع التسعينات، مخلفاً وراءه أصداء لا تزال تتردد على امتداد الكرة الأرضية إلى اليوم.

وبالمقارنة فإن اليمن الديموقراطية لم تكن تملك من الإمكانيات الموازية شيئاً يذكر اللهم سوى الشعارات والمزايدات اللفظية.

ومن ذلك أن أحد الريفيين في حمى قرع الطبول قد سمى أبناءه الأربعة ماركس وانجلز ولينين وستالين فكانت أمهم توزع عليهم مهام العمل في الصباح: لينين للعناية بالبقرة وحلبها، ستالين لرعي

الغنمات الثلاث في شعاب الجبل، ماركس لتحضير الحمار لجلب برميلين من الماء من بئر الوادي، وانجلز لهش الغربان عن حقل العائلة حتى لا يذهب مجهود العام سدى.

وعلى الرغم من مفارقة النكتة إلا أنه يبدو أن الفرق بين أدوار القادة الشيوعيين الأربعة ووظائف الصبيان اليمنيين يبدو أقرب إلى تشخيص المسافة بين تجربتين وعالمين.

ولتقريب الصورة فقد كان لي صديق اسمه عبيد عوض وكان حتى الاستقلال يؤجر عجلات هوائية على رصيف الشارع مقابل فندق التركي بكريتر / عدن، ومع دوران العجلة أصبح يرأس لجنه الرقابة في وزارة الأشغال التي كان وزيرها آنذاك حيدر أبوبكر العطاس الذي أصبح فيما بعد رئيساً للدولة، ولم يكن بإمكان الوزير «أبو معتز» أن يضع رجله خارج الوزارة أو يوقع على أي قرار إلا بإذن وموافقة «عبيد».

وكان حال الأشغال من حال البلد، لذلك فإن «الجاوي» كان يردد طوال اليوم هذا الشعر:

| | |
|---|---|
| تقول لي أنك المدير | مدير من أنت يا مدير |
| والله ما للوزير معنى | فكيف من «مدر» الوزير |

## عبدالفتاح إسماعيل

في مقابل التيار الاستئصالي في عدن السبعينات والذي كان يقف على رأسه الرئيس سالم ربيع علي وإلى جانبه قوى ضاربة نفضت عن نفسها غبار الزمن مصممة على حرق المراحل بما فيها ومن فيها، كان هناك تيار آخر أميل إلى التأني والاستماع إلى

النصائح السوفييتية والألمانية الديموقراطية التي كانت ترى أن العمل الثوري ليس مجرد حماس وشعارات فحسب وإنما هو إمكانيات مادية وقدرات تخطيطية وتنظيمية ونفس طويل، لذلك فإن تقويض وهدم الاقتصاد الوطني القائم سيؤدي لا محالة إلى تقويض البنية التحتية للثورة، وكان يقف على رأس هذا التيار عبدالفتاح إسماعيل الأمين العام للتنظيم السياسي. كان عبد الفتاح بجسده النحيل وعينيه الجاحظتين يشبه راهباً برته الآلام يعيش في دير على قمة جبل معزول.

ولقد كان عبد الفتاح كذلك حيث عرف عنه سهر الليل والخلود إلى ما يشبه العزلة التأملية بين الحين والآخر إضافة إلى النأي عن مجابهات مشكوك في نتائجها ولطالما ترحل في أيام الأزمات العاتية فقيل في ذلك وعن ذلك الكثير.

ومما لا شك فيه أن عبد الفتاح كان يمتلك «كاريزما» ساحرة جعلت منه محور استقطاب على الدوام وخاصة في أوساط المثقفين داخل الحزب الحاكم وخارجه وفي الأوساط اليسارية العربية ولدى دوائر المنظومة الاشتراكية خارج المدار الصيني.

ولكن مشكلة عبد الفتاح إسماعيل كان لها وجهان: الأول اقتصار نفوذه وتأثيره على العاصمة التي كان الريف قد أغرقها كما أسلفنا منذ الأيام السبعة «المجيدة» وقبلها، والثاني : تذبذب أنصاره وترددهم فإذا كانت شجاعته قد جعلته يختار فإن «شجاعتهم» قد جعلتهم يؤجلون الاختيار لأجل غير مسمى لذلك فقد بدا في العديد من المواقف مثل جنرال مهيب دون جيوش.

ولن أنسى اختبار القوة المأساوي الذي حدث في الساحة الواقعة أمام مقر اللجنة المركزية بالتواهي بحضور كمال جنبلاط ومحسن إبراهيم أمين عام منظمة العمل الشيوعي في لبنان حيث منع الجمهور عبد الفتاح إسماعيل من إلقاء خطابه وذلك بمواصلة الهتافات بحياة سالم ربيع حتى كاد عبد الفتاح أن ينسحب لولا وقوف «سالمين» وقد كشر عن أنيابه الشهيرة ليطلب من الناس الهدوء، وطبعاً، فإن تلك المسرحية قد كانت مدبرة.

## سالم زيد محمد

كان «سالم زيد محمد» واحداً من أبرز مؤسسي الجبهة القومية، إحدى الفصائل المسلحة التي كافحت لتحرير جنوب اليمن في الستينات، بل إنه كان كاتب ميثاقها، وكنت قد عرفته قبل ذلك بعدد من السنين حين عمل مدرساً في المعهد العلمي الإسلامي بعدن، وأثار دهشة الطلاب بقوامه الفارع النحيل وأنفه الضخم المحدودب كأنه هلال في المحاق إضافة إلى صوته الجهوري الذي لا يتناسب مع نحافته، وكان الأستاذ الوحيد الذي ينام في المدرسة وسط أكداس من الكتب يلتهمها التهاماً.

ثم التقيته في منتصف الستينات في القاهرة وقد أصبح زعيماً مرموقاً يسير بعصا أنيقة للوجاهة ويعتمر ذقناً مهذباً «بسكسوكة» ويشمخ في عل وقد زم شفتيه ليخفي ذلك البروز الهائل لأسنانه وفكيه، وقد استعذت بالله، فهذا ليس أستاذي الذي أعرفه، ابن النكتة الذي لا يستطيع حبس الضحكة، ولو كان ذلك في مسابقة لها جائزة ثمينة.

وارتكب أستاذي «غلطة العمر» حين وقع مع رفيق عمره الشخصية الوطنية البارزة علي السلامي على وثيقة اندماج بين الجبهة القومية وجبهة تحرير جنوب اليمن في الاسكندرية بدفع ودعم من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، ذلك أن الجبهة القومية التي ينتمي إليها كانت تندفع بلا هوادة للانفراد بالحكم ودمغ كل من عداها بالخيانة والعمالة واللاوطنية وتلك لعمري خطة ضيزى، كان من نتائجها ما هو معروف وغير منكر من البلايا والرزايا والتناحر والاقتتال الأهلي حتى الفناء، فمن أحب الأمر كله ... لابد له أن يفقده كله.

تم فصل سالم زين وآخرون وفي مرحلة لاحقة عاد إلى عدن مجرداً إلا من تقدير شخصي من بعض رفاقه، وكان أجمل ما في المحنة ، إن كان لأي محنة جمال، أن أستاذي حلق « السكسوكة» ورمى عصا الوجاهة، وأخذ يتأمل رفاقه الذين أخذوا يتناقرون كالديوك بعيني فيلسوف وبصيرة حكيم، كأنما كان يرى المصارع القادمة أمام عينيه فكان كلما رأى زفة ثورية يأخذ في ترداد أغنية ناظم الغرالي:

طالعة من بيت أبوها

رايحة بيت الجيران

لابسة الأحمر والأخضر ...

ثم يضحك حتى تغرورق عيناه بالدموع.

***

أشرت بالأمس إلى عودة سالم زين محمد أحد مؤسسي الجبهة

القومية بعدن إلى البلاد بعد أن جرى فصله قبل ذلك، وكيف أنه تحول إلى حكيم يبصر المصارع قبل وقوعها، لذلك فقد زهد في الحكم -أي حكم- وقنع من الغنيمة بالإياب، واكتفى بوظيفة مدير عام لمؤسسة ١٤ أكتوبر للطباعة والنشر، وقد أخذ العبرة من رأس الذئب الطائر الرئيس، «قحطان محمد الشعبي» أول رئيس لجنوب اليمن الذي أفنى حياته من أجل تحرير الوطن، والقائد البارز فيصل عبد اللطيف، ذلك أن الاثنين قد انتهيا إلى السجن على أيدي رفاقهما ومن ثم إلى الموت والقتل دون محاكمة.

والموت نقاد على كفه　　　جواد نختار منها الجياد

ولم تهنأ لسالم زين أيامه في مؤسسه ١٤ أكتوبر فقد كثر شانئوه ومحبوه حتى أسقطوه ودفعوه إلى خارج البلاد كرة أخرى..

أما شانئوه فقد أكثروا من الإعادة والتكرار حول توقيعه على وثيقة الاندماج مع جبهة التحرير، ذلك أن المتطرفين آنئذ كانوا ينظرون إلى مثل ذلك الأمر على أنه خيانة عظمى لا يغسل عارها غير الدم، وكان عدد من الشانئين عيونهم مسلطة على المنصب البسيط لذلك الرجل الكبير، فقد كانت المناصب «الحقيقية» قليلة بالنسبة إلى مجاميع الثائرين وطموحاتهم ومثلها في ذلك الطفيلي العربي خراش الذي يقول:

تكاثرت الظباء على خراش　　　فما يدري خراش ما يصيد.

أما المحبون ومعظمهم من تلاميذه وأبناء منطقته في لحج فقد ظنوا أن بيده مفاتيح قارون، وطبعاً، كان الناس محتاجين ولكن الرجل ما كان بيده أو في مستطاعه أن يفعل مثل غيره فهو حريص

على المال العام من ناحية وحذر من أن يقع في الشباك المنصوبة له من ناحية أخرى.

وقد بلغ الأمر أن أحد أصدقائه الحميمين الشاعر الشعبي الكبير حمود نعمان قد هجاه بديوان شعري كامل استهله بقصيدة ذاعت على كل الألسن مطلعها:

من سنونك منظرك إنك حمار        ما تفرق بين قرصك والخصار ( الإدام)

وقد كان بروحه المرحة الطيبة يرويها بنفسه.

رحم الله سالم زين محمد الذي التقيته بعد ذلك في الرياض يعمل في أحد الفنادق ثم التقيته في القاهرة قبل وفاته وحين سألته عن الصحة قال لي: لا تسأل عن صحة «اللي» ما تهمّه صحته.

## محسن الأخ الكبير

من شخصيات عدن السبعينات الأخ «محسن» وهو بمثابة الأخ الكبير في رواية جورج اوريل «العالم ١٩٨٤».

. ذلك الأخ الذي يرى كل شئ، ولا يفوته شئ، وما دمت تمشي على صراطه المستقيم، فهو راض عنك يباركك، أما إذا خرجت فذنبك على جنبك.. فقد أعذر من أنذر كما يقول العرب.

«محسن» من زاوية أخرى يمكن تشبيهه بـ«أبو الهول» يروعك منظره ولكنك لا تعرف ما سره، وماذا في بطنه أو باطنه، ومن المؤكد أن خزائنه مليئة بأسرار عالم الظلام، لذلك فإن كثيرين ينتظرون كلامه في عالم «تكلم ما فيه حتى الحجر».

«محسن» من زاوية ثالثة: من النوع الذي «دعت له أمه» فقد

خرج سليماً من كل الكمائن المتلفة التي نصبت له وهو بذلك مثل القطط ترميها من الدور العاشر فتسقط على قوائمها ذلك أنها بسبع أرواح كما تقول الأساطير.

وللإنصاف فإن هناك حقيقتين ينبغي أخذهما بعين الاعتبار، الأولى: أنه كانت توجد أربعة أجهزة تشتغل في العالم السفلي في عدن النصف الأول من السبعينات، فإلى جانب جهاز «الأخ محسن» وهو الجهاز المكلف رسمياً بهذا المجال، أنشأ الرئيس سالم ربيع علي جهازاً دموياً تابعاً للرئاسة، وأنشأ الجيش جهازاً مماثلاً، كما أنشأ علي عنتر وصالح مصلح جهازاً رابعاً، بجانب تجمعات صغيرة في بعض المناطق الداخلية أخذت على عاتقها تصفية الماضي وأهله، وللتاريخ، فإن العديد من أعمال الأجهزة يدخل بامتياز في باب «الجرائم ضد الإنسانية».

أما الحقيقة الثانية: فهي أن جهاز الأخ محسن قد اقتصر نشاطه بالدرجة الأولى على عدن وبما أنها المركز فقد كان هناك بعض الضوابط التي أعفت الأجهزة الأخرى نفسها منها، وكان «محسن» حريصاً على ألا يتحمل النتائج بمفرده لذلك فقد كان يطلب تكليفاً خطياً في الحالات الاستثنائية، وهو ما يؤكد مسؤولية السلطة ويسمح برصد اتجاهات التفكير.

ولم يقدر لي أن ألتقي بـ «محسن» في تلك الحقبة العاصفة إلا عرضاً في الساحل الذهبي فكان أن بادرني بالقول «إن شاء الله أحقق معك بنفسي قريباً».. وماذا فعلت؟ تحقق مع بناتنا في التلفزيون على الهواء «يبقى قاصدني أنا» على حد تعبير عادل أمام.

## بنات محسن

تواصلاً مع زاوية الأمس فإن الأخ «محسن» قد هددني بأن يحقق معي شخصياً عندما التقيته في الشاطئ الذهبي «جولد مور» أما السبب فهو: «أنك تحقق مع بناتنا على الهواء».

وقصة ذلك أنني استضفت في برنامجي التليفزيوني «فنجان شاي» ثلاث فتيات قيل لي أنهن تخرجن من ألمانيا الديموقراطية وكان البرنامج يبث على الهواء مباشرة في سهرة أسبوعية تستغرق حوالي ساعتين وكنت أفضل دائماً أن يكون الحوار حراً غير «مطبوخ» وطبعاً لم يكن لدي أي فكرة أنهن درسن على حساب الجهاز وإلا فمن الجنون أن أفكر بإدخال يدي في «عش الزنابير».

بعد التحية والسلام.. وكيف الحال والأحوال.. وشرب فنجان شاي، بدأت الأسئلة تدخل في نوع التخصص ومواد الدراسة فإذا الفتيات كأن على رؤوسهن الطير صم بكم عمي يلجلجن بكلام غير مفهوم، فأصبح حالنا على الهواء كحال السائل عن الروح حيث المسؤول ليس بأعلم من السائل.

ولقد كان الإحباط الأكبر من نصيبي باعتباري المسؤول عن نجاح البرنامج أو فشله، ولو كنت في بلد ديموقراطي لطالبت الأخ «محسن» بالتعويض أو على الأقل «الاعتذار» لأنه لم يحسن تربية «بناته» فيعتذرون عن الظهور على شاشة التليفزيون أو يكن على قدر المسؤولية فيعرفن كيف يجبن.

على كل حال.. أصابتني قشعريرة من نوع ما نتيجة ذلك التهديد المبطن حتى أصبحت كلما مررت بمدينة «التواهي» ولمحت مبنى

الجهاز الأبيض «البريء» أبسمل وأحوقل وأقرأ المعوذتين ثم أمرق كالسهم وأنا مغمض العينين.

لقد تذكرت زملينا «حامد جامع» ذلك المثقف الصومالي العدني الرقيق كالنسمة المسالم كالفراشة الذي يتمزج بالحوار كأنه يقضم تفاحة أو يقرمش بسكوتاً، فقد تلقى دورة في فن «الحوار المضاد» خرج بعدها لا تعرف «وجهه من قفاه» ولا تزال الكوابيس تكبس على رفيقه محمد يوسف قحطان حتى يومنا هذا لأنه كان أول من تلقاه.

## الرفيق نايف حواتمة

لم يشنع عامة الناس في عدن السبعينات على كادر قيادي عربي بقدر ما شنعوا على «الرفيق نايف حواتمة» وبالتأكيد أبا «النوف» لم يسمع شيئاً عن ذلك أو أن ما وصله كان مخففاً لأنه كان يلقى القبول الحسن والإنصات الجيد لدى القيادة، وذلك يكفيه ويرضيه.

وحال شعبنا في ذلك حال الأم التي ترفض أن تصدق أن ابنها الذي ربته بيديها وعلى قلبها يقوم بأعمال لا تنم عن تربية طيبة، لذلك فهي تلقي اللوم على رفاقه حتى وإن تأكدت بنفسها أنه رأس العصابة.

على كل حال.. نشير إلى أن «الرفيق» نايف كان أول من نظّر للخلاف والاختلاف في بلادنا وكان في ذلك منسجماً مع نفسه ولا تثريب عليه، ففي مطلع السبعينات أصدر أبو النوف كتاباً بعنوان «أزمة الثورة في اليمن الجنوبي» ضمنه إحدى «حتمياته» من أنه لا بد من حسم الصراع لصالح اليسار وقد استشعر القائد البارز فيصل

عبد اللطيف حد الموس القاطع فرد على الكتاب بكتاب مضاد أسهم فيه أيضاً علي عبد العليم وعبد الفتاح إسماعيل الذي تنصل في مرحلة لاحقة من مسؤولية مشاركته بحجة أنها تمت تحت الإكراه.

ومن «حسنات» الرفيق نايف أنه طبع بأسلوبه عدداً من الكوادر العليا الذين انطلقت ألسنتهم تنطق بالساعات كلاماً «بلغتنا عن لغتنا بما ليس من لغتنا» كما قال الأعرابي عن النحويين في البصرة.

ففي تلك الأيام العجيبة كان مجرد «تسليك» اللسان بالمصطلحات ورصها في نسق ثم الاستمرار في الحديث دون تلعثم هو إحدى المعجزات، وفي هذه الحالة فإن المستمعين يؤمنون على كل كلمة لأنهم لا يفهمون ولا يريدون الظهور بمظهر غير الفاهم، وفي هذه النقطة بالذات وجدت سوقاً كبيرة للغش السياسي أثارت العجب في بدايتها عندما كانت تشبه الكلمات المتقاطعة ولكنها أثارت الرعب والدمار عندما قررت التحول إلى واقع بديل.

وأنا على يقين أن «الرفيق» نايف حواتمه عندما يستعيد الذكريات الجنوبية ومداخلاته النشطة التي لم تتوقف في أي يوم من الأيام يشعر بالندم الذي يلازم ذكريات الأيام الذهبية، ذلك أن مساحة هامة قد تلاشت أمام طاقاته الهائلة.

وعلى العكس من ذلك كان «الحكيم» جورج حبش الذي يبدو أنه لم يلعب «الغميضة» أبداً فقد كان أميل إلى وزن الأمور والنظر إلى البعيد ومن ذلك ما رواه لي «عبد القادر العفيفي» وكان مسجوناً في «أبين» فقد مر «الحكيم» على معتقله وسأل عنه من يكون.. فقيل له أنه من «بقايا السلاطين» فنصحهم الحكيم بأن يدعوه وشأنه فما

من خطر يأتي من هؤلاء «المنتهين» ويعلق العفيفي بالقول: «أشعر أني مدين بجزء من حياتي لكلمة «الحكيم».

## المؤتمر الخامس وفرص الصعود

في العام ١٩٧٢ عقد المؤتمر العام الخامس للجبهة القومية، الحاكمة في عدن بعد أن سبقته تحضيرات شرسة تمثلت في محاكمات حزبية شملت الأحساب والأنساب والأقوال والأفعال وفتشت في الضمائر والنوايا وغاصت في الخبايا والزوايا.

وكان أسعد الحزبيين من لا حسب له ولا نسب فقد كانت القاعدة أنه كلما كان منبت المرء الاجتماعي في آخر درجات السلم كانت حظوظه في الصعود أوفر على أساس أنه يمتلك من الحقد الطبقي ما يجعله يتصدى بشراسة لإسقاطات الماضي وتجلياته.

ومن الجلي أن هذا المفهوم السطحي الميكانيكي قد ألحق بالبلاد كوارث ستظل تعاني منها لعقود عديدة، وما أعمال الثأر ونزاعات الأراضي والأملاك هذه الأيام سوى أحد وجوه ذلك التسطيح الثوري الذي شرع لأعمال القتل وقطع الأرزاق والأعناق، ونفي الناس في الآفاق.

وقد كشر الرئيس سالم ربيع علي عن أنيابه الحادة في المؤتمر مصداقاً لقول الشاعر:

إذا رأيت نيوب الليث بارزةً فلا تظنن أن الليث يبتسم.

فكان يشرف بنفسه ومن خلال أركان حربه على المحاكمات الحزبية التي قادت إلى انتحار بعض الأعضاء كمداً وحزناً، وإلى اعترافات علنية منكسرة لدى البعض الآخر، وكان على الحزبي أن

ينتقد ذاته حتى لو لم يجد فيها عيباً لكي يتطهر، وأن يتبرأ من قبيلته كما فعل أحمد مساعد حسين الذي تبرأ من «الجبوان» أو حتى يقتل أباه كما فعل «السقلدي» الذي طلب منه صالح مصلح أن يثبت انتماءه للثورة بهذا الفعل الآثم، ولا ذنب لأبيه سوى أنه كان من الشيوخ العارفين.

وكان علي صالح عباد «مقبل» الأمين العام الحالي للحزب الاشتراكي اليمني لا يزال تلك الأيام على يسار اليسار قبل أن يعيد الألمان صقله عبر دورة طويلة، ثم بعد ذلك حوالي ٦ سنوات في سجن الرفاق جعلته يدرك أن الصخرة أصلب من الرأس، وقد استدعى الكادر الإعلامي ذات يوم إلى مكتبه الوسيع فكان أول ما فتح الله عليه بعد أن فرك عينيه طويلاً من أثار نوم كان كابساً عليه أن قال: «والله يا أخوان كلكم عملاء للسفارات الأجنبية باتبيعوا البلاد حتى بدون مقابل، قلت له: وهل لديك دليل؟ قال: أنت يحتاج لك قطع لسان، مكانك تعيش في أجواء القاهرة.. ما تعلمت شيئاً».

كان «مقبل» في تلك الأيام قد تقمص اللهجة الشامية دون أن يذهب إلى الشام، وكان أحدى الآيات العجيبة في مطه للكلام والمبالغة في تعطيش الحروف، وعلى يساريته الزاعقة فلم يعرف عنه أنه كان دموياً بالفعل وأعتقد أن ذلك وراء استمرار دوره السياسي حتى اليوم.

## مأساوية.. عشبية.. هشاشة

أسفر المؤتمر العام الخامس للجبهة القومية الحاكمة في عدن العام ١٩٧٢ عن توازن هش كسب فيه اليسار المتطرف شرعية حزبية

وكسب فيه اليسار المعتدل حق الوجود والتعبير، وبذلك التقط الجميع أنفاسهم إلى حين.

وقد جرى انتخاب الرئيس سالم ربيع علي أميناً عاماً مساعداً وبذلك اقتحم القلعة الحزبية بقوة من موقعة الجديد معززاً بذلك اختراقاته السابقة المثيرة للجدل من موقعه في رئاسة الدولة.

وللحق فإنه ما من أحد كان باستطاعته أن يلجم اندفاعات الرئيس وعنفوانه وفرديته وقد بلغ به اليقين بقدراته أنه لم يعد يقيم وزناً لأحد فبسط ظله على الجميع دون منازع.

ومن عجب أن الذين سعوا لتنصيب سالم ربيع علي للرئاسة كانوا يظنونه مجرد فزاعة طيور لا يهش ولا ينش أو أنه في أحسن الحالات مجرد جسر العبور بين عهدين وقد كان هؤلاء هم أول من شرب كؤوسه المرة بعد أن تحول إلى كابوس يهز مناماتهم ويقلق أحلامهم.

ومن طبيعة هذه الفردانية المتطرفة أنها قابلة للتحول في أية لحظة وأي منعطف لأنها تقوم على قناعات تعقبها اندفاعات، لذلك فإن كثيرين قد رددوا لزمن طويل أن الرئيس وصل إلى أعتاب تحول تاريخي يتسم بالواقعية والاعتدال وأنه قد عبر عن ذلك في اتجاه لتحسين العلاقات مع دول الجوار إلا أن مقتله الفاجع قد حال دون ذلك بل ربما أن مقتله كان بسبب ذلك.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن الرئيس قد عرف عنه بشكل لا لبس فيه نظافة اليد والابتعاد عن مظان المتع والملذات التي أخذت كوادر متزايدة تنغمس فيها، ومن هنا فقد كان سوطاً لاسعاً على

ظهور أولئك الذين اعتقدوا أن من حقهم أن يتنعموا جزاءً وفاقاً لما قدموه في ساحات النضال.

كان الواقع في تلك الأيام يقدم قراءاته بأفضل مما تقدم النظرية، ذلك أن كتاب الواقع لا يختلف عليه الناس إلا من باب المماحكة أما النظرية فلها قراءات عدة على المستوى التطبيقي والجدلي، وقد أثبتت الممارسة عبثية التجريب الاقتصادي ومأساوية التصنيف الاجتماعي وهشاشة البنية النظرية التي تحول العمل السياسي من خلالها إلى تجمعات قبلية تحت لافتات ماركسية.

وقد أدى فرز القوى خلال المؤتمر العام الخامس وعقبه إلى تغليب مقاييس الصراع على مقاييس الاجتهاد فأصبح حق البقاء هدف الأهداف فقضى بذلك على ما تبقى من الطهارة الثورية التي تحولت إلى دسائس متطاولة طبعت مراحل بكاملها ولم تخلف وراءها سوى الرماد.

## السياسة.. والجوكر

يبدو أنني أطلت في هذه السلسلة من «دفاتر الأيام» عن السبعينيات. وأشعر أن ذكرياتي المباشرة قد أخذت في النضوب، أما ذاكرة التاريخ فذاك شأن آخر له رجاله وكتابه ومصادره وتحقيقاته وتحليلاته، وليست كتابتي من ذلك في شيء إن هي إلا ترجيعات ذاكرة مترعة بالهموم وأصداء معاناة ترسبت في أعماق الروح وكان لابد لها أن تصعد يوماً إلى السطح وقد تخلصت من الشوائب وبرئت من الجراح ومالت إلى المرح تقتنصه من فيض المرارة.

لقد مضى أبطال تلك المرحلة بحسناتهم وسيئاتهم، ببطولاتهم

وبضعفهم الإنساني بمعرفتهم وبجهلهم، بطموحاتهم وانكساراتهم، وكانوا في كل الأحوال نتاج مرحلة عاصفة ووضع اجتماعي صعب في وطن منقسم كما لعبت الظروف الإقليمية والدولية دوراً كبيراً في تعقيد الأوضاع، وزاد الطين بلة اعتناق العقيدة الماركسية التي أصبحت مثل سرير «فيدياس» في الميثولوجيا اليونانية.

وقد تلبست العقيدة الماركسية أوهام بدائية.. وإسعافات ذاتية وعدالة ظالمة وأعراف قبلية وعداءات لا تعرف من أين تنبع وإلى أين تصب فأصبحت العقيدة، عصيدة يمنية حيرت الألباب وأحرقت أيدي الآكلين، حتى أضحت مسألة البقاء والطفو على سطح الحياة السياسية فناً بالغ الحساسية يحتاج إلى مهارات الحواة وبصيرة المنجمين، وقد عبر عن ذلك أحسن تعبير وعلى البداهة علي سالم البيض عندما سئل في تلفزيون أبوظبي في العام ١٩٩٠م إذا لم تخني الذاكرة عن مفهومه للسياسة وحظوظه منها فقال: السياسة مثل لعب الورق والشاطر فيها هو الذي يشهر «الجوكر» في اللحظة المناسبة مضيفاً أنه دائماً يحتفظ بـ" الجوكر» في جيبه.

ومن الواضح أن «البيض» الذي لم يستقر في أي منصب قبل العام ١٩٨٦ سوى عدة أشهر هو خلاصة هذا المزيج من البداوة والعلمانية، من الإيمان النظري بالعمل الجماعي والإصرار العلمي على التفرد بالقرار من القراءة في قوانين أكثر النظريات وثوقاً بالحتميات إلى التسليم بنظرية «الجوكر» التي من الواضح بالتجربة أنها لا تستند إلى أي أساس.

وللحق فإن التجربة التي امتدت لأكثر من ربع قرن قد أنجزت مهام كانت تبدو في عداد المستحيلات وفي مقدمتها توحيد الجزء

الجنوبي من اليمن الذي كان يضم أكثر من عشرين سلطنة وإمارة ومشيخة، لا تربطها أية وشائج، كما أن المد التعليمي والتأهيلي الذي أسهم الاتحاد السوفيتي بنصيب وافر فيه قد نقل المعرفة إلى كل بيت تقريباً فارتفع الوعي الذي أسهم بدور كبير في تأجيج الاختلافات نظراً لعدم وجود قنوات طبيعية ومدنية تستوعب التعددية التي هي من طبيعة الحياة.

## شافعل مثل قايد

غادرت مدينة عدن في الأيام الأخيرة من العام ١٩٧٣ متجهاً إلى صنعاء ضمن وفد أدبي يضمني والأستاذ محمود الحاج الشاعر والصحافي المعروف برئاسة الشاعر الأستاذ محمد سعيد جرادة لغرض إرساء اتحاد عام للأدباء والكتاب اليمنيين على مستوى الوطن اليمني.

وكان عمر الجاوي صاحب الفكرة والدينامو المحرك وراءها حيث كان فرع عدن قد تم تأسيسه وأعاد إصدار مجلة «الحكمة» التي أسسها الشهيد أحمد عبدالوهاب الوريث.

وقد ذهب الجرادة إلى الرئيس سالم ربيع علي لاطلاعه على مهمة الوفد وما يتوقعه الاتحاد من دعم من الدولة ولاستئذانه بالسفر فلم يعترض على شيء سوى أنه أشار إلى اسمي متسائلاً: وما دخل هذا بالأدباء والكتاب؟ فرد عليه الجرادة بروحه المرحة: هذا يتقفز له مع الذين يتقفزون.

وفي «المقيل» الذي كان يضمنا بشكل شبه يومي في «المنصورة» وبحضور المطرب الكبير محمد مرشد ناجي الذي كانت تربطني به

علاقة ودية حميمة حتى أنه أمر أولاده بأن يعدوا لي «ثلاجة» قهوة مزغولة، أي بالسكر كلما حضرت ذلك لأن «المبرز» الذي نلتقي فيه كان مجاوراً لمنزله، وفي ذلك تكريم وأي تكريم لشخصي المتواضع. أخذ الجرادة يلمز ويغمز خالطاً الجد بالهزل وهو يقول للمرشد: يابو علي.. الرجال صاحبنا اللي على بالك.. باين رقبته باتنقرط.. بس خلي بالك، أنا ما قلت حاجة، هاذي أيام بطالة، وما يودي الإنسان في داهية إلا لسانه.

فرد عليه المرشدي: يارجال قل غير الكلام، منوه صاحبنا ومنو بايقرطه؟ فلكزني الجرادة بكوعه قائلاً: صاحبنا أبو لسان طويلة اللي بجنبي، واللي بايقرطة الكبير أبو الأنياب.. ثم روى قصة المقابلة وما استنتجه لنفسه من لهجة الرجل «الكبير».

علق محمد مرشد ناجي بالقول: يا أخي.. فال الله ولا فالك وعلى كل حال إذا كان غريمك رئيس الدولة فالحل الوحيد إنك تترك له البلاد بما فيها و«تفل» بجلدك إلى أي مكان.

وكانت تلك حكمة المرشدي الشائعة وبسببها ترك البلاد مدة طويلة في ضوء كلام من هذا القبيل، وفي تلك الفترة، فإن الحليم تكفيه الإشارة، ويا روحي ما بعدك روح.

تذكرت بأسى أصحاب «مقيل البنجسار» بالتواهي الذين بعد أن «يسلطنوا» بالقات وتنفك عقدة الخوف عن ألسنتهم ينشد الصف الذي على اليسار: الأرض.. الأرض لمن نتركها؟ فيرد الذين على اليمين: للريح .. للذيب.. وهم يشيرون بألسنتهم إلى صورة الجدار.. ثم يصرخ أحدهم: إذا زاد الزايد شفعل (سأفعل بلهجة

الحجرية) مثل قايد.. ماذا فعل قايد؟ كان من بطولات ذلك الزمان فإنه عبر الحدود بسلام.

***

تواصلاً مع زاوية الأمس فقد غادرت مطار عدن في الأيام الأخيرة من العام ١٩٧٣م برفقة الأستاذين الشاعرين محمد سعيد جرادة ومحمود الحاج وبذلك أكون قد أكملت أربعة أعوام تقريباً بالوفاء والتمام منذ تخرجي من الجامعة وحتى مغادرتي النهائية وهي السنوات التي لامستها فيما كتبت خلال الأيام المنصرمة وفي تقديري أن مشاهداتي وانطباعاتي ليست سوى قطرة من مطرة أو شعرة من جلد كثيف.

ولرسم «بانوراما» لذلك الزمن العاصف المليء بالإثارة والتحولات وظلال الأبطال الذين كانوا يتدفقون على المسرح كالأقدار ويغادرون سريعاً وقد أصبحوا أثراً من الآثار، يلزم استنطاق آلاف الشهود الذين أصبح أكثرهم الآن في زوايا الأرض الأربع بعد أن تفرقوا «أيدي سبأ» وباعد الله بين أسفارهم جزاءً وفاقاً..

وإذا كان هذا القصور وذلك التعقيد خلال هذه الفترة الزمنية الوجيزة (٤ سنوات) فكيف بتجربة استثنائية امتدت من العام ١٩٦٧، سنة الاستقلال حتى العام ١٩٩٠، سنة الوحدة وما سبق ذلك من سنوات كفاح مسلح مجيد وباسل ضد الاستعمار الإنجليزي وما أعقب ذلك من إسقاطات وتوابع وزوابع كادت أن تزيل وحدة اليمن.

ما أن استقرت الطائرة في الجو واطمأن الركاب إلى أن أحداً لن يستدعى من داخل الطائرة حتى أخذت ألقي نظرة وداع على أحب المدن إلى قلبي وأكثرها التصاقاً بوجداني، تلك المدينة الأسطورية التي طالما انبعثت من رمادها كأنها العنقاء أو طائر الفينيق، المدينة التي كان يغني لها اليمنيون كأنها فتاه معشوقة حسناء فيقولون:

عدن.. يا ليت عدن مسير يوم

أسير فيه ليلة ما أرقد النوم

عدن التي أطلق عليها الشعب لقب «أم المساكين» يأتيها فقراء اليمن وفقراء الهند والسند وفقراء شرق أفريقيا فتطعمهم من جوع وتؤمنهم من خوف، حتى أن الشاعر الشعبي الذي دخل عدن للمرة الأولى في الخمسينيات فرأى الانجليز وأحياءهم السكنية، وطائفة «البهرة» بسوقها المسمى باسمها والطائفة الفارسية بمعبدهم الواقع في «الطويلة» ثم الهندوس «البانيان» وحاراتهم المتعددة، وحي الصومال في «القلوعة» و«الشيخ إسحاق» وأحياء الهنود المسلمين، وأخيراً حارة اليهود ومعبدهم ومدرستهم، فحار في هذا الخليط الأممي المتعايش والمتنافر فقال:

عدن.. عدن.. يا بندر الهنود ومن دخل مسلم خرج يهودي

لمح الأستاذ الجرادة دمعة في عيني فقال يشجعني: ألم تسمع بقول الزبيري:

خرجنا من السجن شم الأنوف كما تخرج الأسد من غابها

نمر على شفرات السيوف ونأتي المنية من بابها

قلت له : يا أستاذ أي أنوف وأي شمم، والله إننا نخرج كما

الثعابين من جحورها، لقد كان لدى الزبيري.. ورفاقه قضية محددة وهدف واضح أما نحن فقد نسينا أو أنسينا ما هي القضية فأضعنا الطريق إلى الهدف وها نحن نكاد نضيع الطريق إلى الهوية.

## من حر (عدن) إلى برد صنعاء

تواصلاً مع زاوية الأمس.. هبطنا في مطار صنعاء أنا وزميلي محمد سعيد جرادة ومحمود علي الحاج في يوم شتائي بارد أواخر ديسمبر ١٩٧٣ وأخذنا نرتجف نحن القادمون من مدينة عدن الدافئة حيث بإمكانك السباحة على شواطئها الجميلة في هذا الفصل من العام، وعلى كل حال، فلم يكن لدينا من الملابس ما نتقي به هذا القر، ولكن، لحسن الحظ فإن صنعاء الواقعة على ارتفاع يصل إلى ثلاثة آلاف متر فوق سطح البحر، تكون دافئة في نهاراتها الشتائية حيث الحركة والعمل، ويبدأ طقسها في البرودة أواخر العصر حيث الناس في مقايل القات ليصل ذروته عند الفجر.

كان في استقبالنا منتدباً عن مكتب شؤون الوحدة اليمنية الأخ محمد اليازلي وهو شاب لطيف يمتلك روح الدعابة وقد لازمنا طوال مهمتنا ملازمة الظل لأصلة وأخذنا إلى فندق معقول فودعنا على أساس أن يمر علينا صباحاً لمقابلة وزير الوحدة الأستاذ عبدالله حمران ومن ثم مقابلة رئيس الجمهورية اليمنية (المجلس الجمهوري) القاضي عبد الرحمن الارياني لنشرح له مهمتنا البسيطة المعقدة، حيث كانت الثقة شبه معدومة بين الشطرين. لذلك فإن كل طرف يفتش فيما وراء النوايا، ويعرض ما يجده أو يتصور أنه وجده على محكات الاحتمالات المختلفة، فيخرج بالضرورة بشيء مدهش لا

علاقة له بأصل الموضوع تماماً، وفي مثل هذه الأجواء تطيب للخفافيش حفلات الهمز واللمز.

لم يكن البروتوكول اليمني معقداً آنذاك، وقد دلفنا من بوابة القصر الجمهوري مشياً على الأقدام دون أن يسألنا الحرس إلى أين حتى وجدنا أنفسنا في غرفة وزير شؤون الوحدة بجانب مكتب رئيس الجمهورية، ولم يكن عبدالله حمران في مكتبه فقد سبقناه في التبكير.

«طاس» الأستاذ جرادة رئيس الوفد في تفكير عميق ووضع رجلاً على رجل دون مبالاة بينما هو يسبح في البعيد حتى أن الوزير عندما وصل وهو يلهث من صعود السلم الحجري ويسلم فيما يشبه الاختناق لم ينتبه له الأستاذ الجرادة علماً أنهما صديقان قديمان حميمان.. وفجأة فتح الله على الجرادة فقال دون ديباجة أو سلام أو سؤال عن الصحة والحال، يا أخ عبدالله ما فعل الله بخيل الإمام التي كانت هناك في «الحوش» مشيراً إلى البهو الخارجي للقصر؟

كان الجرادة قد انتقل إلى الماضي فيما يشبه الغيبوبة وقد نسي الوفد والمهمة ومن الواضح أنه كان كمن يواصل حديثاً مع صديقه القديم لم ينقطع منذ الخمسينيات، وكذلك كانت استجابة حمران كأن بينهما نوعاً من الاتصال الخفي «تلبائي».

قرصت الأستاذ جرادة لتنبيهه فإذا به ينتفض كأنما لدغه ثعبان وهو يقول: قل يا فتاح يا عليم.. ماذا تريد على الصبح؟ قلت: الوفد والمهمة والسؤال عن صحة الوزير وتعريفه بنا. فأجاب: أما عن الوزير فلا تتدخل بيننا، ومن شان أغيظك أكثر عادنا باسبه، وفعلاً

قام بسب الوزير على الطريقة العدنية، وهنا قام الإثنان معاً واحتضنا بعضهما طويلاً بلهفة ومحبة عجيبة.. وواصل الجرادة حديثه: أما عن الوفد والمهمة ولعب العيال حقكم، فهذا أتركه لك ولصاحبك ابن الحاج.. يا ابني.. أنا جيت أفك الكربة عن قلبي أشوف أصحابي واشم لي قليل هواء.

## الارياني مع القاضي الاستاذ نعمان

تواصلاً مع زاوية الأمس في مكتب وزير شؤون الوحدة اليمنية بصنعاء الأستاذ عبدالله حمران الذي كان معجباً أيما أعجاب بشعر رئيس وفدنا القادم من عدن محمد سعيد جرادة، أخذ الوزير يقرأ مطولات من شعر صاحبه بينما الأخير يهز رأسه طرباً وأنا ومحمود الحاج أسقط في يدنا، ولم يكن أمامنا سوى الانتظار بعد أن كنا قد هيأنا نفسينا لقول جمل من الوزن الثقيل خاصة أنها كانت المرة الأولى التي نسافر فيها لمهمة من هذا النوع.

أخيراً جرى استدعاؤنا لمقابلة القاضي عبد الرحمن الإرياني رئيس المجلس الجمهوري فدخلنا على شيخ وقور يعتمر عمامة وجبة القضاة غير محاط بأي شيء من أبهة الحكم وصولجانه، وكان متحفظاً في الحديث، ويبدو انه اعتبر مجيئنا للسلام عليه فقط، فاستمع إلينا بأدب جم دون أن يعقب سوى بالقول: لاشك أنكم ستذهبون إلى وزارة الإعلام وسيقدمون لكم كل مساعدة ممكنة. وكان ذلك إيذاناً بالانصراف فانصرفنا.

ثم ذهبنا للسلام على الأستاذ أحمد محمد نعمان عضو المجلس الجمهوري وشيخ المجاهدين اليمنيين الذي استقبلنا بعاصفة من

الأشعار والحكم والمرويات والقفشات.

ثم فجأة انعطف بالحديث فقال: قلبي يحدثني أن بعضكم لن يعود إلى عدن عقب انتهاء المهمة فالتفتنا لبعضنا أنا ومحمود الحاج لأننا كنا قد قررنا ذلك فعلاً، ولم نكن قد قلنا ذلك للأستاذ جرادة حتى لا نحبطه لأن موقفه سيكون صعباً عندما يعود بدون الوفد، وربما لن يسمح له بالمغادرة بعد ذلك أبداً.

أذهلتنا فراسة النعمان المشهود له بها فأخذنا أنا ومحمود نجمجم بما يؤكد صدق توقعه ولكن تلميحاً لا تصريحاً فعقب على البداهة بالقول: أخاف على «فخارتي» أن تحطما.. مشيراً إلى رأسه.. ثم شعرا:

ولو كان لي رأسان جدت بواحد ولكنه رأس إذا راح أعقما

بعد ذلك ذكر الأستاذ النعمان أنه يحضر لإصدار جريدة وقال: سيسعدني مساهمتكما فيها.. فقلنا له: لكل حادث حديث وسنفكر في ذلك، فضحك وهو يقول: عندما كنت في سجن الإمام بحجة مسلسلاً بالقيود وغير قادر على المشي السوي ثم أطلق سراحي وتحررت قدماي من القيود ظللت لفترة أسير بطريقة المقيدين.. وعقب: وأنتم الآن في هذه المرحلة.. وأرجو أن لا تصلوا لمثل ما وصلت إليه مع عبد الناصر حين سجنني وأنا رئيس للوزراء فأبرقت إليه أقول: لقد كنا يا سيدي نبحث عن حرية القول فأصبحنا نبحث عن حرية «البول» في هذا السجن الرهيب.

## في حضرة الزبادي

تواصلاً مع زاوية الأمس، غادرنا مكتب الأستاذ أحمد محمد

نعمان وقد أصبحنا أكثر حكمة وأكثر وثوقاً بفاعلية الكلمة ودور الشعر في صياغة الوجدان، وكان مرافقنا محمد اليازلي لم ينطق ببنت شفه خلال اللقاءات ولكننا ما أن خرجنا من القصر الجمهوري حتى غلبته روح النكتة فقال للجرادة:

يا أستاذ.. ماذا فعل الله بالخيل التي كانت هنا أيام الأمام؟ وهو كان بذلك يشير إلى السؤال الذي وجهة الجرادة لوزير شؤون الوحدة.. وقد غضب الجرادة مما اعتبره اجتراء عليه فقال له: هؤلاء الملاعين- مشيراً إليّ والي محمود الحاج- بيني وبينهم مزاح ومعرفة قديمة، لكن أنت «أيش جاب برمتك بين البرم».

- «عيب يا أبني أنا في سن أبوك إلزم حدودك».

أما السبب الحقيقي للغضب فقد شرحه الجرادة عقب ذلك بالقول: «أنتم ما تعرفوا صنعاء.. إن نكتة مثل هذه ستصبح حديث مجالس القات عشر سنوات ثم ينسى الناس اسمي ويسمونني ماذا فعل الله..

ومنعاً لأي ملابسات أو ملاسنات قادمة فقد قرر الجرادة - كرئيس للوفد- الامتناع عن أية مبادرة من عنده والالتزام بما نطلبه منه، وكنا في الطريق لمقابلة الأستاذ الأديب محمد الربادي وكيل وزارة الإعلام، وصديق قديم وحميم أيضاً للجرادة.

سألنا الجرادة: ماذا تريدون أن أقول؟ قلت له: بعد السلام والتعرف وكلمتين عن المهمة وتقديم البرنامج المقترح للقاءات مع الأدباء والكتاب اليمنيين، سيكون شيئاً جميلاً لو طلبت من الأستاذ الربادي بصفته صديقك أن ينظم لنا زيارة لمعالم صنعاء وضواحيها

ومغانيها الشهيرة في حدة والروضة والوادي فقال: نعم الفكرة..

ذهبنا إلى مكتب الوكيل الربادي فاستقبلنا ببشاشته المعهودة وبلاغة لسانه الطليقة وكرمه الذي تلمحه في عينيه إضافة إلى شجاعته الروحية والأدبية التي جعلت منه علماً من إعلام حرية الرأي والجهر بالمعتقد.. وقد جرى كل شيء على ما يرام إلى أن اقترح الجرادة تنظيم برنامج زيارة معالم العاصمة وضواحيها حيث انتفض الوكيل وغادر مكتبه وقد وضع يده اليسرى فوق عينيه مقترباً من الجرادة يتأمله وهو يقول: أيش جيت من سويسرا.. ما فيش حجرة في صنعاء إلا وتعرفها وتعرفك.. سايح أوروبي يا ملعون.. صرخ الجرادة: والله ما في ملعون إلا هذا -مشيراً إليّ- هو اللي «ودف» بي.

## التقدميون تقدموا والرجعيون رجعوا

تواصلاً مع زاوية الأمس وما التقطناه من حكايات الوفد الأدبي اليمني القادم من الجنوب إلى الشمال سعياً وراء تأسيس إتحاد عام موحد للأدباء والكتاب اليمنين في الأيام الأخيرة من العام ١٩٧٣ ومطلع العام ١٩٧٤ نشير إلى أن رئيس الوفد الأستاذ الشاعر محمد سعيد جرادة تأكد لديه بما لا يقبل الشك أنه سيعود إلى عدن وحيداً بدون عضوي الوفد نظراً للأوضاع التي فصلناها في هذه الزاوية اليومية على امتداد أكثر من شهر ومع أنه كان متعاطفاً مع زميله كاتب هذه الزاوية والشاعر الصحافي محمود الحاج إلا أنه -والحق معه- قد وجد نفسه في وضع حرج، لأنه لن يعدم من يحمله مسؤولية هروبهما خاصة وأنهما غادرا بدون ضمانات.

وقد حاول جاهداً إثناءنا عن هذه «الفعلة السوداء» دون جدوى، وتوسل إلينا بكل من نحب أن نرحم كبر سنه، وأن نتصور بمسؤولية النتائج التي يمكن أن يتحملها دون أي ذنب جناه سوى قبوله بأن يترأس اثنين من (الصعاليك) اللذين ما إن وجدا نفسيهما خارج القفص حتى قررا الرحيل دون تفكير في مصير أهلهما، وعلى الرغم من وجاهة آراء وتحليلات الأستاذ إلا أننا أعطيناه آذاناً صماء، بل إننا أخذنا نزين له الانضمام إلينا نظراً لمكانته الأدبية العالية التي ستجعل من إقامته في الجزء الشمالي من وطننا سمناً على عسل، خلافاً لحالنا أنا وصديقي الذي نعتبر شبه مجهولين، عدا هذه المعرفة العابرة بالأوساط الأدبية وبعض المسؤولين في الشمال عبر مهمتنا الرائدة التعيسة والتي ستنتهي بما يشبه الفضيحة فأية مصداقية لموفد يدعو لأمر هو أول الهاربين منه، ومع ذلك فقد كنا انعكاساً لصورة وطننا في ذلك الزمن الكئيب، ولا أخفي أنني استمزجت رأي استأذنا عمر الجاوي قبل أن أغادر فقال لي: أفعل ما يحلو لك.. وما الفرق بين عدن وصنعاء، أما النتائج فدعها عليّ.. ويا جبل ما يهزك ريح.

الأستاذ الجرادة أخذ في تهديدنا بعد أن وجد أن الملاينة لا تنفع، وكان يقول: والله يا ملاعين إذا ما رجعتوا سوف أفعلها وأهرب معكم وعليكم تحمل النتائج.. وفجأة وجد الأستاذ الحل حين عثر على جواب السؤال.. فقال: سيسألونني عن هذا الهروب الذي لم يخطر لي ببال وسأقول لهم: التقدميون تقدموا والرجعيون رجعوا.. وكان يضحك من قلبه لهذه الأحجية لأنه كان متهماً بالرجعية كشاعر كلاسيكي محافظ على العمود، ثم يضيف: وسأقول لهم أيضاً احمدوا الله وبوسوا أيديكم وراء وقدام لأنني رجعت بينما

المفروض أن أكون قائد المسيرة.. وعاد الأستاذ وحيداً ورددت مدينة عدن بأسرها مقولته: التقدميون تقدموا والرجعيون رجعوا.. رحم الله الأستاذ جرادة..

## صنعاء.. وإن طال السفر

تواصلاً مع زاوية الأمس من دفاتر الأيام العتيقة، ودعت أنا وزميلي الأستاذ محمود الحاج رئيس وفدنا وأستاذنا الشاعر محمد سعيد جرادة، بعد أن ودعنا مدينة عدن ويممنا شطر صنعاء التي قال عنها الشاعر إنها «حوت كل فن» والتي يقول عنها العرب «لابد من صنعاء وإن طال السفر» نظراً لصعوبة الوصول إليها وتحصنها على رأس الكتلة الجبلية اليمنية العظمى.

لم تكن صنعاؤنا في تلك الأيام في حال استقرار وإنما هو هدوء خادع مثل ذلك الذي يسبق العاصفة، ولقد كدت أن أقول ونحن ندخل القصر الجمهوري دون أن يسألنا الحرس إلى أين، وأوجه كلامي إلى رئيس الجمهورية القاضي عبد الرحمن الأرياني: حكمت فعدلت فأمنت فتركت بابك مفتوحاً، ولكنني بعد أيام من البقاء الضائع تهيأ لي أن ذلك لم يكن سوى الطريق السالك والباب المفتوح للإطاحة بالوضع وقد كان، وأن الشعرة الرقيقة التي لا تكاد ترى بين الأمن المستتب المتيقظ والأمن المنهك النائم قد تكون العتبة الأخيرة للولوج إلى صرح بلقيس الممرّد.

ولقد كان القاضي الإرياني كريماً وصريحاً معي وزميلي فأمر لنا بمرتب شهري يبلغ خمسمائة ريال لكل واحد نقيم به أودينا ولكنه أبلغنا في الوقت ذاته أنه لا يمكنه الأمر بتوظيفنا في الحال نظراً

لملابسات قدومنا إلى صنعاء «وحتى لا يظن» الأخوة في عدن «أن لنا يداً في موضوع هروبكما أو أننا نشجع هذا النوع من الأعمال» مشيراً إلى أن علينا أن نعتبر أنفسنا في وطننا وبين أهلنا وعلى الرحب والسعة. وكان القاضي كثير التحرز مديد الأناة وتلك بعض صفات القضاء والقضاة.

وهكذا بدأت أيام الصعلكة الصنعانية «لا مهرة ولا عمل» على حد تعبير المثل اليمني، ولقد كان الوسط الأدبي في صنعاء ودوداً وعطوفاً وشديد الإحساس بنا بدءاً بالأستاذين الشاعرين عبدالله البردوني وعبد العزيز المقالح وحتى مجايلينا وبالذات عبد الودود سيف ومحمد المساح وإسماعيل الوريث إضافة إلى النازحين من الجنوب أمثالنا الذين كانت تعلو وجوههم غبرة وتعرفهم بسيماهم ونظراتهم الشاردة وتشممهم للأخبار القادمة من عدن، وإن كانت على كثرتها في تلك الأيام مثل «كلام الليل يمحوه النهار أو أنه «كلام الليل مدهون» بشمع.. إذا طلعت عليه الشمس ذابا.

## وداعاً لليمن

بزاوية اليوم أنهي «دفاتر الأيام» وستغيب «آفاق» مؤقتاً نظراً لقيامي بإجازتي السنوية.

أخذت صنعاء تضيق بي وبصاحبي بعد أن عبرنا شتاءها القارس إلى ربيعها البهيج، أو بالأصح أننا ضقنا بنفسينا ذرعاً ونحن نتجول على غير هدى لنأوي بعد ذلك منهكين إلى منزل الزميل الكريم عبدالله الضالعي في بستان السلطان، وقد أخذ يظهر علينا ما يظهر على الخيول إذا طال استجمامها والذي شخصه المتنبي بقوله:

يقول لي الطبيب أكلت شيئاً وداؤك في شرابك والطعام
ومـا في طبـه أني جــــواد أضر بجسمه طول الجمـام

من ناحية أخرى، فقد طارت السكرة وجاءت الفكرة، حيث أخذ الحنين يهزني إلى أم العيال وإلى طفلي الوليد آنذاك خالد، فقد بدت عدن أبعد من المريخ، وكانت مسألة خروج العائلات دونها خرط القتاد، إلا إذا كنت «غير محظوظ» مثل رئيس وزراء عدن الأسبق محمد علي هيثم وهو من أبرز قادة الصف الأول للجبهة القومية وقد هرب من موسكو إلى القاهرة وطالب بعائلته من دون جدوى، فقرر الزواج استئناساً إلى الحلال، فلما عرف جماعتنا بذلك وبموعد الزفاف شحنوا عائلة لتحضر الحفل أملاً في أن تنغص عليه فرحته، وطبعاً فهذا لعب على أعلى مستوى إذ كيف له أن يهنأ بعيداً عن الأحضان الدافئة للدولة.. لذلك فقد أعقبت حفل زفافه محاولتان لاغتياله في وضح النهار بمدينة القاهرة.

ومما زاد الطين بلة أن «الأخ الكبير» في الشمال آنذاك واسمه «محمد خميس» استدعانا إلى مكتبه العامر وتحدث إلينا عن إنسانيته مشيراً إلى أنه لا يغرق المعتقلين في بركة المياه التي أشار إليها ولا يعلقهم من أعقابهم في السقف ولا يخفيهم في مخابئ تحت الأرض ما من طريق إليها سوى كوة في السقف يرمى من خلالها الأكل إليهم، وكان في ذلك كله يطمئننا ويبعث السرور في نفسينا، وقد غادرناه شاكرين ومقدرين.

وهكذا أخذنا نفكر وندبر وقد ضاقت علينا الأرض بما رحبت حتى جاء ذلك اليوم الحزين الذي قررنا فيه مغادرة يمننا، ولم يتحمل

صاحبي وطأة الاغتراب، أما أنا فمازلت فيه منذ ذلك اليوم من شهر إبريل من العام ١٩٧٤.

وهكذا بعد أن قلنا وداعاً لعدن قلنا وداعاً لليمن بأسرها.

# الفهــرس

جمع وإعداد

لطفي فؤاد أحمد نعمان

طباعة مطابع وزنكو غراف الصباحي ت: ٥٠٥٨٥٠



يطوف معك فضل النقيب في حديقته المنظومة ، ويطير بك في آفاقه المنثورة ، فلا يبلغك ملل ، ولا ينال منك كلل .

ناثرٌ باهرٌ ، وشاعرٌ ساحرٌ . يُقطِّر شفق حنينه عذوبةً منغمةً ، وحميّا إشراقاته إكسيراً للحياة ، وهو يفعل ذلك ، كي تجلجل بحّة صوته الرائعة بضحكة النسيان ! يا لهول ما رأى الشاعر ، وغرائب ما عاين ! كيف استطاع أن يحيل الحرائق إلى ضوء ، وحمرة الألم إلى شفقٍ أخّاذ ، وأن يجعل من العمر ساعة تجلٍ وتملٍ لبارق ذاك الضوء ، ووقفة جلالٍ وإجلالٍ لذاك الشفق ؟

فضل النقيب .. رقةُ شاعرٍ ، وموسوعيةُ مثقف ، وشَغَفُ فنان ، وأريحية زعيم !

خالد عبدالله الرويشان

وزير الثقافة